بسم الله الرحمن الرحيم

مراقي العبودية

في توحيد رب البرية

حقوق الطبع لكل مسلم

يطلب الكتاب من المؤلف مباشرة

هـ ٣٧٣٣٣٧٥

للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالإيجاد والعدم، المتوحّد بالتأثير والإبداع وخلق الأعراض والأجسام، المنزّه عن الحلول والاتحاد بشيء من جميع الأجرام، القاهر فوق عباده، المنعم على أهل وداده، المتفضل بإرشاده فلا وجوب عليه ولا إلزام، الذي أبدع بلا مثال واتصف بكل كمال، وقدّر الأرزاق والآجال، ودبر الليالي والأيام، المحيط علما بالواجبات والجائزات والمستحيلات، المتصرف بالعلويات والسفليات، المهيمن على جميع الممكنات، فلا حصر له تعالى بخاص ولا عام. المنزّه عن الكيف والكم وعن الفرح[1] والحزن والغم، وعن الألم والذوق والشم، وتردى بالكبرياء والعظمة على الدوام، المتعالي عن الأين، الذي حجب نفسه في الدنيا عن رؤية العين. المحسن بكشف الغطاء يوم رفع الغين ليراه المحبون بالإعزاز والإكرام.

فسبحان من تعزز عن الإدراك، وتعاظم عن الإشراك، وتحجّب عن الرسل والأملاك، فاستوى في الحجب عن حقيقته جميع الأنام.

أحمد من قدّر الأمور في القِدَم، وأخرج الكائنات من العدم، وقضى وأمر وحكم، واتصف بالقدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام، وتعالى عن المكافأة والمماثلة وعن المشابهة والمشاكلة وعن المضاهاة والمعادلة ليس كمثله شيء فلا تتخيله الأوهام.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا ضدَّ ولا ندَّ له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله.

وأصلي وأسلم على هذا الرسول الأعظم والنبي الأكرم والسيد السند الأفخم الذي رقّاه أعلى مقام سيدنا ومولانا محمد المصطفى، وعلى آله وصحبه أولي الوفا، وعترته الكرام الشرفا.

متعنا الله باتباعه، وأحيانا على سنته. وأماتنا على ملته، وجعلنا من حزبه المفلحين ومن أصحاب اليمين يوم تتميز الرسل عن غيرهم بالمنار والأعلام.

اللهم صلِّ عليه صلاة يفوق نشرها عطرها ويدوم برها، ويستمد فيها بركات ذي الجلال والإكرام

وسلم تسليما.

---

[1] ننفي عن مولانا ﷻ الفرح الذي نفهمه ونثبت له الذي يعلمه.

أما بعد:

فيقول عبدٍ ربه العزيزِ عبدِ العزيز بن الشيخ محمد سهيل بن الشيخ عبد الفتاحِ الخطيب. القادريِ نسباً الحسني أباً وأماً، والعباسي أم أب، والحسيني أم جد، الدمشقي مولداً والشافعي مذهبا، الأشعري عقيدة أنه:

طلب مني بعض الصحب تدريسهم أهمَّ الواجبات التي يجب على العبد معرفتها، فلبيت رغبتهم هذه لفريضة العلم الشرعي عليهم، وكنت قد رضعت هذا العلم الشريف على يدي سيدي الوالد رحمه الله تعالى سنين طويلة في مجالسه المتعددة، ثم بعد وفاته وفقني الله تعالى للمثول بين يدي شيخي الرابع الشيخ أحمد المحاميد الذي قرأت عليه منظوم التوحيد للشيخ اللقاني، فكنت أقرأ النظم ويقوم الشيخ بشرحها، وكنت أثناءها أحضر مجالس شيخنا الشاغوري في مفتاح الجنة لشيخنا الهاشمي، فنفعني الله تعالى بهذه الدروس أيما نفع، ولله الحمد والمنة.

فلما طلب مني بعض الاخوة والصحب تدريسهم هذا العلم رجعت إلى مذكراتي وشرائط التسجيل استخرج منها ما سجلته في غابر الأيام من درر التوحيد والأحكام. وكنت أطرح عليهم في المجلس الواحد بعض صفات الباري عز وجل باعتبار أن علم التوحيد من أهم العلوم، بل هو أصل العلوم وأساسها، وسبيل المعرفة ونبراسها، وبه يخرج العبد من ربقة الكفر إلى نور الإيمان، وكنت أدون وأجمع وأحضرّ كل ذلك وأبسّطه لهم قدر ما يقتضي الحال، فخرجت هذه الرسالة اللطيفة التي سميتها بعد الانتهاء من جمعها:

مراقي العبودية في توحيد رب البرية

وهو الكتاب الثاني الذي جمعته في التوحيد، وكان قبله رسالة صغيرة أو مذكرة في عقيدة أهل السنة والجماعة شرحت فيها أبيات جوهرة التوحيد بشكل مقتضب مختصر وهي مقدمة ومدخل إلى هذا العلم الذي لا نجاة بدون معرفته فقد أمرنا مولانا عز وجل بذلك في كتابه العزيز بقوله: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾.

وقد صدّرت أبحاثها بمنظومة الشيخ عبد المجيد الشرنوبي وهو فقيه مالكي مصري أزهري له مشاركة في عدة علوم، وألف فيها أيضاً، فقد شرح مختصر ابن أبي جمرة والأربعين النووية في الحديث وشرح متن العشماوية والعزية وقرب بعض المعاني في رسالة أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي، وشرح باختصار الحكم العطائية وله كتاب الشمائل وإرشاد السالك إلى ألفية ابن مالك المتوفى سنة ١٣٤٨ – ١٩٢٩ فجاءت هذه الرسالة شرحاً لهذه المنظومة التي بدأها ناظمها بقوله:

يقول راجي الغفر للذنوب عبد المجيد الأزهري الشرنوبي

الحمد لله الذي توحَّدا في ذاتـه وبالبقـا تـفـردّا

وبعد حمد الله والصَّلاةِ على النبي صاحب الصّلاتِ

فهذه عقائد التوحيد ننجو بها من ربقة التقليد

قام الصحب الذين قرئت عليهم هذه الرسالة بحفظ المنظومة بيتاً بيتاً وقدّمت لهم المكافآت التقديرية وإن كان الشيب قد وَخَط رؤوسهم، وكان قدَّم لي هذه المنظومة مولانا وقدوتنا إلى الله تعالى، سيدُ علماء التوحيد والتصوف علما وأخلاقا سيدي الشيخ عبد الرحمن الشاغوري الحمصي مولدا، الدمشقي إقامة، الشافعي مذهبا، الأشعري عقيدة، الشاذلي مشربا، الذي غدا إماما لأهل السنة والجماعة، ولطالما رأيت من بوارق توحيده ولوامع أخلاقه ما أسرني. وجعل أهل المشرق والمغرب ينقادون إليه فينضوون تحت لوائه ومشيخته. وكان مما منّ الله عليّ به مثولي بين يديه لقراءة هذه الرسالة المتواضعة، ثم تقديمه لها مشكورا، فالله أسأل أن أكون عند حسن ظنه بي، كما أسأله تعالى أن يحفظه لنا ذخرا ومددا.

وعلى كل حال إذا لم يرو هذا الكتاب ظمأك فعليك بالكتاب الموسع الذي ألقيته على المنبر في التوحيد وسميته نفحات منبرية في القضايا الإيمانية ففيه أبحاث مستفيضة في أجزاء المسائل، أسأل الله تعالى أن ينفع به عباده الصالحين ويهدي به عباده المسلمين، والله من وراء القصد.

مقدمة الإمام العلم

مولانا الشيخ عبد الرحمن الشاغوري

بسم الله الرحمن الرحيم

□

الحمد لله الذي يتحير العقلُ عن أوصافه ويقف، ولا يجوز له تشبيهه فمن شبّهه هلك، ومن عطّله تلف، أحمده سبحانه وتعالى على جزيل نعمه التي منها نغترف.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد . إله أقسم بالسماء ذات الحبك إنكم لفي قولٍ مختلِف.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبدُه ورسوله الذي هو من بحر فيض الكريم يغترف.

اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه الذين كلٌ منهم بالكمال متصف، وسلم تسليما .

أما بعد:

فإنِ أصلَ العبادات والعلوم وأشرفَها علمُ التوحيد، الذي به يقتدر على إثبات العقائد الدينية التي تُكتسَب من أدلتها اليقينية، أو هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته والتصديق به ذاتا وصفاتٍ وأفعالا، وتنزيهه عن كل مالا يليق به، وإثبات النبوة التي عليها بنيت الشرائع والأحكام وأساس الإسلام.

ولهذا اعتنى بهذا العلم الشريف السلف والخلف لدفع غائلة الشكوك والرّيب عن المسلمين معتمدين أولاً وآخراً على القرآن الكريم وسنة نبيه العظيم، ووضعوا لهذا العلم أسسه وقواعده حتى بلغ ذروته في القرن الرابع الهجري، واتخذوا له أسماءً عدة منها:علم التوحيد والعقيدة والصفات – وعلم أصول الدين . وعلم الكلام.وعلى أساس هذا العلم انقسم المسلمون إلى قسمين:

القسم الأول : أهل السنة ومنهم إمامنا وقدوتنا إلى الله تعالى سيدي الإمام أبو الحسن الأشعري. والإمام أبو منصور الماتريدي، والإمام الغزالي، والإمام فخر الدين الرازي، وإمام الحرمين الجويني، وأبو إسحق الشيرازي، والأستاذ أبو إسحق الإسفراييني، وهم الذين اعتمدوا في دراستهم الكتاب والسنة اللذين هما الأصلان للعقيدة ومصدر أحكام الدين.

القسم الثاني: من جنح إلى الفلسفة والنظر العقلي، فإن خالف نصوص الكتاب والسنة لجأ إلى التأويل، زعما منه أن عمله هذا هو في سبيل نصرة الدين، وهؤلاء هم المعتزلة.

وهناك فِرَقٌ كثيرة خرجت بفلسفتها عن الدين خروجاً تامّاً.

وبناء على هاتين النظرتين حدثت فتنة القول عند علماء التوحيد في كلام الله على أساس معركة بين من استمسك بالشرع الظاهر، ومن تطرّف في النظر العقلي، مع اتفاق كل منهما على أن الأحكام الدينية واجبة الاتباع فيما يتعلق منها بالعبادات والمعاملات.

وبناء على هذا الخلاف وغيره نشأت الفرق:

١- **الأشاعرة**: أتباع سيدنا أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وجدّه الأعلى أبو موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ، ولد عام ٢٦٠ هـ بالبصرة ودخل بغداد فكان إمام أهل زمانه وتوفي سنة ٣٣٠ هـ.

٢- **الماتريدية**: أتباع أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي المتوفى عام ٣٣٣هـ.

٣- **المعتزلة**: يرأسها واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الإمام الحسن البصري ولد سنة /٨٠هـ/ والذي نشر مذهب الاعتزال في الآفاق بإرسال تلامذته كل في وجهة، توفي سنة١٣١هـ.

وقد وجدت هذه الفرقة (الأخيرة) من الأشاعرة والماتريدية مقاومةً عنيفةً على مدى العصر، ولولا أن الأمة تحصنت على يد الأئمة الأعلام الذين أبانوا لنا بالأدلة والبراهين عقيدة التوحيد وعلمونا التفرقة بين أدلة التنزيه وتعطيل الأدلة لما انتشرت العقيدة الصحيحة. إذ نقلوها لنا مشافهة وعن طريق كتب التوحيد المعتمدة التي قيّض الله لأهل العلم طباعتها ونشرها.

وقد أدلى دلوه في هذا العلم سيد كريم، وشيخ فاضل، عرفناه على مدى سنوات ممتدة بالدأب العلمي والفقهي، شأنه شأن والده من قبل، وهو أخي الشيخ عبد العزيز بن فضيلة عالم دمشق ونسّابتها الشيخ محمد سهيل الخطيب الحسني نسباً، والشافعي مذهباً والأشعري عقيدة، والشاذلي طريقة، فقد ألف رسالة في التوحيد لطيفة مفيدة، قرأها بين يدي على فترات حتى خرجت بحلتها

البهية، وقد أجزته، بما فيها فرعاً فرعاً، ولم يخرج فيها عن أسلافه في كل ما أورده فيها من مسائل وفروع، وقد ختمها بالمصادر والمراجع التي استقى منها هذه الرسالة ليخرج عن العهدة كما هي عادةُ أهل العلم، ولتكون نبراساً لمن يريد الاستزادة من معين هذا التوحيد الذي لا ينضب، وقد ذيلها بنظم في التوحيد للشيخ عبد المجيد الشرنوبي المتوفىسنة١٣٤٨هـ فجاءت رسالته كالشرح للنظم وفقه الله ورعاه

والله أسأل أن ينفع المسلمين بها، كما نفعهم من قبل بكتبه الفقهية: ثلاثة أقمار ـ والصيام ـ والمناسك، وأن لا ينساني من صالح دعائه في خلواته وجلواته والحمد لله رب العالمين.

دمشق ١٤١٣/٥/١٥ هـ ـ ١٩٩٢/١١/١١ م

عبد الرحمن الشاغوري

شيخ الطريقة الشاذلية

بين يدى الكتاب

بعث الله سيدنا محمّداً إلى الناس كافة بالرسالة الخاتمة لما قبله من الشرائع، فيه العقيدة السليمة والعبادات المستقيمة والمعاملات الحكيمة والآداب القويمة:

أما العقائد فتأمر بالإيمان بالله تعالى موجد الأكوان لا شريك له، وبملائكته الذين لا يدركهم العوام بالبصر ولا بالمجهر، وبرسل الله الذين أخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وباليوم الآخر يوم ينتصف المظلوم من الظالم ويجازى كل بعمله ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وبالقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى خالق النفع والضر، فمن صبر على بلائه وقام بشكر نعمائه زاده الله من نعمه التي لا تُعَدُّ ولا تحصى.

ولأجل ذلك أمر الله عز وجل بالتفكير في السموات والأرض وما خلق الله من نظام بديع وتنسيق رفيع ليزداد إيمان العبد وإيقان القلب بخالق الكون الإله المبدع الواحد الأحد، لأن الشركة تقتضي التعارض والتدافع مصداقا لقوله تعالى:

﴿ما اتخذ اللهُ من ولدٍ وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون﴾ .

فجاءت عقيدة التوحيد لتنزيه المولى عز وجل من عقيدة الشرك الأكبر والأصغر، إذ أنّ الشرك أنواع:

١- شرك الاستقلال: وهو إثبات إلهين مستقلّين (كهرمز إله الخير، ويزدان إله الشر عند المجوس) .

٢- شرك التبعيض: وهو تركيب الإله من آلهة (أقانيم ثلاثة) وهو شرك النصارى الآب والابن وروح القدس إله واحد .

٣- شرك التقريب: وهو عبادة غير الله تقرباً إلى ذاته، وهو شرك متأخري الجاهلية.

٤- شرك التقليد: وهو عبادة غير الله تبعاً للغير حميَّةً أو تعصباً وهو شرك متأخري الجاهلية.

٥- شرك الأسباب: إسناد التأثير أي إضافة الاختراع والإيجاد للأسباب وهو شرك الفلاسفة والطبائعيين الذين يقولون بوجود الشبع بالأكل من غير تخلّف.

٦- شرك الأغراض: أي العمل لغير الله بل لمجرد الثناء (أي شرك الرياء وهو الشرك الأصغر).

وحكم الأربعة الأولى الكفر، وحكم الخامسة إن قيل: بأن الأسباب العادية تؤثر بطبعها فهو الكفر. وإن قيل: بقوة أودعها الله

(كالمعتزلة) فهو فسق مبتدع[1]، وحكم السادسة إحباط الثواب.

من أسباب تأليف الكتاب:

أصيبت عقيدة العباد في عصرنا الفاسد بهزّة عنيفة وأزمة حادّة كادت تقضي عليها، وانتشرت ألفاظ الكفر والردة في الطرقات والشوارع دون مبالاة أو انتباه، وارتفعت أصوات المصلحين تنادي بالعودة إلى الدين والتشبث بالعقائد الموروثة عن أنبياء الله ورسله قبل أن يعم الظلام نواحي الحياة، ويطغى الضلال طغياناً لا قبل لأحد بمقاومته، ولن ينفع عندها التقدّم العلمي والثقافي ولن يوفر للناس الأمن والسلام وستصاب الإنسانية بنكسة خطيرة لتركها الدين وعقيدة التوحيد، وهذا (أي ترك الدين) حذر منه المصطفى ﷺ فقال: (**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاثة وسبعين فرقة**).

نادى المصلحون بكل ذلك وراحوا يبحثون عن الطريقة المثلى لإعادة العباد إلى جادة الصواب، وليقوموا بتغيير جوهري في النفس الإنسانية، فلم يجدوا مثل غرس العقيدة الصحيحة التي لا تتأثر بالأفكار البشرية ولا تعبث بها الآراء ولا الأهواء.

فراحوا ينهلون العقيدة من معين كتاب الله وسنة نبيه اللذين حفظهما رب العزة بحفظٍ هذا الدين فبقيت هذه العقيدة في صفائها ونقائها وقدسيتها منذ أن جاء بها رسل الله جميعاً، ومنذ أن جمعت المؤمنين بدين الله الواحد الذي لا يختلف زماناً ولا مكاناً.

---

[1] قال ناظم التوحيد: ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملة

ومن يقل بالقوة المودعهِ فذاكِ بِدْعِي فلا تلتفتِ

فقام العلماء بدورهم فنشروا هذه العقيدة، وعمقوا جذورها في النفس الإنسانية وكان على رأسهم سيدي الشيخ عبد الرحمن الشاغوري إمام أهل التوحيد، وهم لا يألون جهدهم في تقوية العقيدة والدين في قلوب الناس لتصارع أهواء الشر والفساد في كل مكان وتخليصها من الشوائب التي خالطتها عبر السنين.

لأن العقيدة إذا امتزجت في قلب العبد ودمه وغَذَّاها بالعمل الصالح ونمّاها بالبرّ والتقوى ،أُكرم بخوارق وكرامات كالتي نسمعها عن سلفنا الصالح كمصعب بن عمير الذي:((كان يحمل لواء سيدنا النبي يوم أحد، حين اختلّ الموقف في ميدان القتال، فثبت فيه، وتشتدُّ صدمة قريش للمسلمين فينكشفون بسبب مخالفتهم أمر القائد العظيم ويتفرقون عن اللواء، ولكن مصعباً أثبت قدمه في الأرض محتفظاً بلواء سيدنا رسول الله جهد الاستطاعة، ويقبل عليه فارس من قريش فيضرب يده بالسيف فيقطعها، ويسقط اللواء فيسرع مصعب ويتناول اللواء بيده الأخرى ويرفعه عالياً، ولكن فرسان قريش تتكاثر عليه ويضربه أحدهم على يده الأخرى فيقطعها، وتبقى قدمه ثابتة، لا يزول ولا يميل، وما زال اللواء مرفوعاً يضم عليه عضديه، ويغيظ ذلك فرسان قريش، فيكرون على مصعب وينفذون رماحهم في صدره فيسقط ويسقط معه اللواء، فيتلقى اللواء أخوه أبو الروم، وما يزال لواء رسول الله ﷺ مرفوعاً حتى يبلغ المدينة.

ويرى الرسول مصعباً في ميدان القتال مضرَّجاً بدمه، فيتلو قول الله عز وجل:

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديل﴾ ثم يقول: إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة)).

فلِمَ هذه التضحية، ولم هذا الإقدام وهذه البسالة ؟ أليست هي العقيدة ؟ أليس هو الإيمان الراسخ ؟ جعلهم ينطلقون في الأرض كالشعلة في الهشيم تحيله نارا ونورا، وتنهض بالبشرية وتنير لها الطريق.

أليست هي العقيدة التي جعلت لقاء الله في سبيل شريعته أحبّ إليهم من لقاء أهلهم وأبنائهم، ورغبوا في النعيم الموعود عن النعيم

العاجل، بلى، ورحم الله القائل:

وإذا العقيدة لامست قلب امرئٍ كانت له في التضحيات روائعُ

فعلى العباد اليوم أن يعودوا لعقيدة التوحيد، قادةً وجنوداً وحماةَ الثغور، وأن يعرفوا قيمة الإيمان والعقيدة، وقد مثّل العلماء قيمتهما في مقابلة الإلحاد والزندقة برجلين:

- ١ أحدهما: مؤمن مستقيم على سنن الإيمان .
- ٢ والثاني: زائغ حائد عن سنن الدين القيم لا يؤمن بإله ولا ببعث ولا جزاء، ولا يعتقد أن الله يحاسب كل نفس على ما قدمته من خير وشر.

أما المؤمن فهو سعيد في نفسه لأنه عرف ربه فطاب عيشه، وثابر على العمل وصابر في الخير، سعيد بربه لأنه أطاعه فحفظه وصانه يخافه الآخرون، سعيدٍ في جماعته لأنه أحسن معاملتهم لم يكن جباراً عتياً ولا ظالماً يأكل حقوق الناس فاطمأنوا له، وحفّت قلوبهم به، ووجدهم إلى جانبه أعواناً له في السرّاء والضراء، وسيلقى في الأرض جزاء المؤمنين الصادقين، وما أعد الله للصالحين من جنات النعيم يوم الدين. ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾

وأما ذلك الملحد الذي لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر فإنه إذا ما حدّثته نفسه بالإساءة استطاع أن يخفي جرمه، فإنه يكون آمناً على نفسه، إذ لا يحسب حساباً ليوم آخر، وهذا فساد في الضمير وضياع للمصلحة العامة، وإذا أصابه ضرّ يئس من رحمة الله، وإذا أصابه خير بطر وتجبّر على عباد الله، وربما دفعه اليأس في محاولة التخلص من الحياة، وهو شقي عند ربه فلا يقيه المخاوف، ولا يحفظه من المكاره، بل يصرف عنه عونَ الناس وحبَّهم، وهو شقي في جماعته لا يحب الخير إلا لنفسه، ولا يحاول التودد إلى جماعته وقومه، ثم هو في الآخرة من الخاسرين ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ . (يونس).

لذلك عدَّ العلماء معرفة علم التوحيد من الواجبات، ووضعوا له المصنفات، وجعلوا له ثمرة وموضوعاً وفضلاً ونسبة واستمداداً وحكماً ومسائل وغيرها فقالوا:

إن **علم التوحيد**[1] : هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً .

وموضوعه : ذات الله تعالى وذات رسله من حيث ما يجب وما يستحيل وما يمكن (واجبات ، مستحيلات ، ممكنات) .

---

[1] بغير معنى الفن المدون .

وثمرته : معرفة الله تعالى وصفاته وصفات رسله الكرام والسمعيات بالبراهين القطعية والفوز بالسعادة الأبدية .

وفضله : أنه أشرف العلوم ـ كما قدَّم له مولانا الشيخ عبد الرحمن الشاغوري حفظه الله تعالى ـ لأن هذا العلم متعلق بذات الله تعالى وذات رسله **والمتعلِق يشرف بشرف المتعلَق** .

ونسبته : أنه أصل العلوم وما سواه فرع عنه .

وواضعه : سيدنا أبو الحسن الأشعري ومتابعوه ، ويلَّقبون بالأشاعرة، وأبو منصور الماتريدي ومتابعوه ويلقبون بالماتريدية .

واسمه : علم التوحيد أو علم الكلام أو علم أصول الدين أو علم العقيدة .

واستمداده : من الأدلة العقلية والنقلية .

حكم الشارع فيه : الوجوب العيني على كل مكلف من ذكر وأنثى .

ومسائله : قضاياه الباحثة عن الواجبات و الجائزات المستحيلات.

وقد جمعتُ هذا الكتاب من المصادر الموثوقة ، من كتب علم التوحيد ذكرتها آخر هذا الكتاب لتكون مزيد علم لطالبيها

والفضل بيد الله يهبه لمن يشاء .

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذا هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ .

تراجم الأئمة
الثلاثة من أهل السنة والجماعة

كثيراً ما يرد في هذه المقدمة في علم التوحيد مبادئ عالمين إمامين في علم التوحيد هما الإمامان : أبو الحسن الأشعري ، وأبو منصور الماتريدي ، وهما إماما المتقدمين من أهل السنة وقد ظهر الأول بالبصرة ، وظهر الثاني بسمرقند وقد جمعتهما مقاومة المعتزلة ، ولما كان الإمام المقدَّم في هذا العصر في علم التوحيد هو شيخنا ومولانا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ عبد الرحمن الشاغوري فإني أعرض لترجمته وترجمة إماميه قياماً بحقهم علينا رضي الله تعالى عنهم أجمعين وحفظ لنا شيخنا ذخراً ومدداً .

هو العلامة صاحب وقته في التوحيد أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أمير البصرة بلال بن أبي بردةٍ بن صاحب سيدنا رسول الله سيدنا أبي موسى عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري اليماني البِصرْي.

●٣ مشايخه: تتلمذ على عدد من مشايخ عصره منهم:

أبو خليفة الجمحي. وأبو علي محمد بن عبد الوهّاب الجبائي، وزكريا الساجي، وسهل بن نوح وطبقتهم.

●٤ صفته: اشتهر هذا الإمام بذكائه المفرط وقوة الفهم، وتبحره في العلم، وكان صاحب دعابة ومزاح كثير، وكان يقنع باليسير، وتصانيفه جمّة تقضي له بسعة العلم.

بدأ الإمام حياته بدراسة مذهب الاعتزال، وبرع في هذا المذهب، حتى رفع المعتزلة به رؤوسهم عالياً وكان لفصاحته يتولى الجدل نائباً عن شيخه الجبائي ثم كره المذهب وتبّرأ منه، قال الفقيه أبو بكر الصيرفي.

« كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى نشأ الأشعري فحجرهم في أقماع السّمْسِم »

وقد تَبرّأ من مذهب الاعتزال على منبر البصرة ومما قاله:

« كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا يرى بالأبصار، وأن الشرَّ فعلي ليس بقدر، وإني تائب معتقدٌ الردَّ على المعتزلة » .

وله رأيان في مسألة التفويض أو التأويل في الصفات[1] مرة قال بالتفويض ومرة قال بالتأويل كلٌ مفصّل في كتبه.

وله المناظرة المشهورة مع شيخه الجبّائي في قول المعتزلة: يجب على الله فعل الصلاح والأصلح: حيث قال الأشعري بأن الله يفعل ما يشاء، فقال لشيخه الجبّائي:

– ماذا تقول في ثلاثة صغار مات أحدهم وكبر اثنان، فآمن أحدهم وكفر الآخر، فما العلة في اختزام الطفل؟

– قال الجبائي: لأن الله علم أنه لو بلغ لكفر، فكان اختزامه أصلح له.

قال الأشعري: فقد أحيا أحدهما فكفر!!

قال الجبائي: إنما أحياه ليعرّضعه أعلى المراتب.

قال الأشعري: فلم لا أحيا الطفل ليعرّضه لأعلى المراتب.

قال الجبائي: وسوست؟!!

قال الأشعري: لا، ولكن وقف حمار الشيخ.

كانت هذه المناظرة وغيرها سبباً في تركه مذهب الاعتزال، ففي مقدمة كتابه الإبانة بَيَّن المآخذ التي أخذها على المعتزلة، وأنهم خالفوا رواية الصحابة في كثير من الأمور:

---

[1] كآية (الرحمن على العرش استوى).

بعض من الآراء الضالة التي تبناها المعتزلة:

١- عدم رؤية الله بالأبصار في الجنة.

٢- أنكروا شفاعة سيدنا رسول الله ﷺ.

٣- جحدوا عذاب القبر.

٤- قالوا بخلق القرآن.

٥- زعموا أن الله عز وجل يشاء مالا يكون ويكون مالا يشاء.

٦- زعموا أنهم يملكون الضر والنفع لأنفسهم.

٧- وأنهم ينفردون بالقدرة على أعمالهم أودعها الله فيهم.

٨- حكموا على العصاة (المرتكبين للكبائر) بالنار والخلود فيها.

٩- ودفعوا أن يكون لله عز وجل وجه أو يدان أو عين.

ثم ردّ على هؤلاء المعتزلة وأيد رده بالأدلة، النقلية والعقلية، فهو يثبت ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف من صفات الله تعالى ورسله واليوم الآخر والملائكة، والحساب والعقاب والثواب، ويتجه إلى الأدلة العقلية والبراهين المنطقية ويستدل بها على صدق ما جاء في القرآن والسنة عقلاً بعد أن وجب التصديق بها كما هي نقلاً، فهو لا يتخذ من العقل حاكماً على النصوص ليؤولها أو يمضي على ظاهرها. بل يتخذ العقل خادماً لظواهر النصوص فيؤيدها.

واتبع في كل ذلك طريقة المعتزلة نفسها ليفلج عليهم ويقطع شبهاتهم ويفحمهم بما في أيديهم ويرد عليهم حجتهم، فنال لذلك منزلة عظيمة وصار له أنصار كثيرون ولقي من الحكام تأييداً ونصرة وبث أنصاره في الأقاليم يحاربون خصوم الجماعة ومخالفيهم ولقبه أكثر علماء عصره بإمام أهل السنة والجماعة.

وكان يرى أنه لا يجوز تكفير أحد من أهل القبلة، وبقيت هذه عقيدته حتى وفاته ﷺ، إذ أنه دعا أحد تلامذته حين دنت وفاته وهو زاهر بن أحمد السرخسي فقال له:

« *اِشهد عليَّ أني لا أكَفِّر أحداً من أهل القبلة، لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات* » .

خَلَفَ الإمام تلامذة كثر ذكرهم صاحب كتاب تبيين كذب المفتري وصَنّفَ /٣٠٠/ مصنف.

ألف كتباً كثيرة في الرد على مختلف الآراء والنحل والفرق، وقد عدد في كتابه (العُمد في الرؤية) كتباً كثيرة ألفها، كما ألف بعد كتاب ذاك (العُمد) كتباً كثيرة عددها ابن فورك في تبيين كذب المفتري.

أشهر كتبه المتداولة:

- ٥ اللمع في الرد على أهل البدع.
- ٦ مقالات الإسلاميين.
- ٧ الإبانة.
- ٨ كتاب الصفات وهو أعظم كتبه نقض فيه ما كان ألّفه قديماً صحح فيه مذهبه على مذهب المعتزلة، بعد خروجه منه.

قال عنه ابن الباقلاني: أفضل أحوالي أن أفهم كلام الأشعري.

توفي الإمام في بغداد سنة ٣٢٤ وقبل بقي إلى سنة ثلاثين وثلاث مئة.

هو الإمام العلم إمام ماوراء النهر أبو منصور الماتُريدي محمد بن محمد بن محمود من أئمة علماء الكلام نسبته إلى ماتُريد قرية بسمرقند.

تلقى العلم على علماء عصره في الثلث الأخير من القرن الثالث الهجري ومنهم (في الفقه وعلم الكلام) نصر بن يحيى البلخي المتوفى سنة ٢٦٨ هـ.

كان الإمام حنفيّ المذهب ودرس آراء الإمام أبي حنيفة في العقائد والفقه ونظر فيها حتى برع في عدد من العلوم وتلاقت آراؤه مع آراء الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان في جملة أصولها.

وقامت له جولات في الفقه وأصوله، وفي أصول الدين، لكن مناظراته اتسمت بمنهاج غير منهاج الأشعري، وإن تلاقيا في كثير من النتائج.

وقد برز الإمام أبو منصور في عصر نال فيه المعتزلة غضب

الشعب واستنكاره، وكان يشارك في هذه المناظرات مع هذه الطائفة التي رددت أقوال المعتزلة في العراق.

ومنهاج الماتريدي في إثبات معرفة الله تعالى هو العقل بإرشاد من الشرع، أي أنهم لا يسرفون فيجعلون للعقل سلطاناً كبيراً، لكنهم جعلوا لعلم العقائد مصدرين:

النقل والعقل ، فإن اختلفا قدم النقل والشرع على العقل.

هذا المنهج دعا الماتريدي أن يتقارب في بعض الآراء مع المعتزلة - أقول مقاربة - فهو يرى أن معرفة الله يمكن أن يدرك وجوبها العقل وآراء أخرى تقاربت في كثير منها من آراء الأشاعرة في النتائج كما قدمت.

مؤلفاته: له كتب عدة منها:

- ٩تأويلات أهل السنة (تفسير الماتريدي) طبع في القاهرة ١٩٧١ (في ٣٧١).
- ١٠كتاب التوحيد تحقيق فتح الله خليف طبع في بيروت دار المشرق ١٩٧٠ ونسخة عنه قدمها لي الشيخ أديب الكلاس حفظه الله تعالى.
- ١١شرح الفقه الأكبر طبع بيروت ١٩٨٢.

توفي الإمام بسمرقند سنة ٣٣٣ هـ رضي الله عنه وأرضاه.

الإمام الشيخ

عبد الرحمن الشاغوري

١٩١٤

هو سيدي الشيخ عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن مصطفى ابن عبد الرحمن عابدين ثم الشاغوري، ولادته سنة ١٩١٤م،ولد ونشأ في حمص وتوفي والده صغيرا، وكان له منذ صغره رغبة بنظم الشعر، وكان له فيه سجية، فقاده ذلك لحضور مجالس الذكر والسماع عند شيخ الطريقة الرفاعية الشيخ يوسف جندل الذي كان أحد كبار الزّهاد والعباد، كثير السكوت دائم الصوم والذكر وكان مجلسه حافلاً بالقصائد الدينية مما ساعده ذلك على سجية النظم عنده.

قدم دمشق سنة ١٩٢٢م، وكانت سجية الشعر عنده قد تكاملت فبدأ ينظم المدائح النبوية كلما سمع لحناً أو طنيناً.

تلقى علومه على كبار علماء عصره، أمثال الشيخ حسني بن بكري البغال[1] في العربية وبعض التفسير، وحفظ بعض المتون. وكان من طبقته عنده الشيخ محمود الحبال، والشيخ عبد الحميد الدقر، والشيخ سليمان الحجازي والشيخ سعيد الكردي.

وترقى في علوم العربية عند الشيخ محمد بركات ثم الشيخ لطفي الفيومي، والشيخ علي سليق والشيخ إسماعيل الطيبي، والشيخ عبد الرحمن الطيبي والشيخ أحمد الدقر.

وقرأ شيئاً من الفرائض على الشيخ أبي الخير الميداني.

وكان من مشايخه في التوحيد والتصوف بدءاً من سنة ١٩٤٠ إمام أهل زمانه فيهما: محمد بن الهاشمي شيخ المربين والسالكين، وكان يقرأ العبارة في درس شيخه مع بعض المعيدين في الدرس أمثال سيدي وشيخي الشيخ عبد الوكيل الدروبي شيخ الشافعية في هذا العصر.

كما قرأ التوحيد على الشيخ عبد القادر الدكالي.

أجيز الإمام من الشيخ الهاشمي بالورد العام، وأجازه الشيخ سعيد الكردي بالورد الخاص، وكذا الشيخ سعيد الحمزاوي.

قام بالخطابة في عدد من مساجد دمشق كان آخرها جامع الخياط بجوار داره العامرة بالتقوى والصلاح.

عرف الشيخ بالتواضع، وحسن السمت والصبر والتقوى وصفاء القلب، وحسن الظن بالناس وبتربية السالكين، وهذه الصفات لم تتوفر لسواه ممن يدّعي التربية والمشيخة لذلك نال فيه لقب الإمام عن جدارة واستحقاق علماً وأخلاقاً، لأن العلم وحده لا يكفي، لذلك جاءت فيه شهادة شيخه الأعظم سيدي محمد الهاشمي فقال:

« لا يوجد أحسن من سيّدي عبد الرحمن لأهل الطريق والمريدين» نقلها لي شيخنا الشيخ الدروبي حفظه الله تعالى.

وبعد وفاة شيخه الهاشمي تقلد المشيخة بعده، فسار سير شيخه.

وقام بالتدريس في عدد من مساجد دمشق، وما تزال دروسه قائمة بحمد الله تعالى ومدده ورضوانه، والمحروم من حرم بركة حضور هذه المجالس، يقوم فيها بتدريس كتب التوحيد والأخلاق

---

[1] من تلامذة الشيخ علي الدقر رحمة الله تعالى ت ١٩٣٥ م

كما كان يفعل شيخه من قبل رضي الله عنهما، سار في وجهة الإمام الأول في التوحيد (الأشعري) وتبنى آراءه كما تبناها من قبل الباقلاني، ودافع عنها، دون أن يؤدي به هذا إلى إنكار عقيدة السادة الماتريدية وكان يكرر في مجالسه: « كما أنه يوجد شافعي وحنفي، فكذلك في العقيدة يوجد أشعري وماتريدي، فكلهم من رسول الله ملتمس » .

كان همُّ الإمام الشيخ عبد الرحمن تمكين العقيدة في قلوب الناس قولاً وعملاً ومعرفة، ويزيد أواصر الحب بين جميع الطبقات شعاره في ذلك (أَحِبَّ لأخيك ما تحبُّ لنفسك) فأحبَّه الخاص والعام، واعتقده كل من عرفه، وهو في كل أموره يعاهد الناس إذا جلسوا لبعضهم بعضاً ألا يتحدثوا بأمور ثلاثة: الدنيا والنساء والسياسة. وكم من مرة سمعته يقول:

علم الإسلام: الفقه ومحله الجسم.

وعلم العقائد: الإيمان ومحله القلب.

وعلم الإحسان: الإخلاص ومحله الروح، ويكون هذا عند الوصول إلى كمال الإيمان، عندها يشرف العبد على الإحسان.

أركان العقيدة الإسلامية:

العقيدة هي التصديق بالشيء والجزم به دون شك أو ريبة، فهي بمعنى الإيمانِ. يقال: اعتقد كذا أي: آمن به والإيمان بمعنى التصديق، يقال: آمن بالشيء: أي صدق به تصديقا لا ريب فيه ولا شك معه.

صرحت الأحاديث المستفيضة التي بلغت حد التواتر مفهوم الإيمان أو أركان الإيمان وهي:

١- الإيمان بالله تعالى وصفاته ومظاهر عظمته.

٢- والإيمان بالملائكة، وما يتبعها من الإيمان بالجن وهو عالم ما وراء الطبيعة (العالم غير المنظور).

[1] توقفت دروس الشيخ بمرضه الذي أصيب به سنة ١٤١٨ للهجرة وأقعد في داره

٣- والإيمان بالكتب السماوية لتحديد معالم الخير والشر والحلال والحرام، وهي منهج الحق المرسوم للعبد ليسير عليه.

٤- والإيمان بالأنبياء والرسل أعلام الهدى وقادة الخلق.

٥- والإيمان باليوم الآخر يوم البعث والجزاء.

٦- والإيمان بالقضاء والقدر الذي يسير عليه نظام الكون في الخلق والتدبير.

وهذا ما سنتناوله في هذه الرسالة بالترتيب إن شاء الله تعالى بدءاً برأس الأركان:

الإيمان بالله تعالى

يجب على كل مكلف شرعاً معرفة ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقه تعالى، وحق رسله عليهم الصلاة والسلام.

إذ أن أنواع الأحكام ثلاثة: حكم عقلي وحكم شرعي وحكم عادي وأعني بالواجب على كل مكلف، الواجب الشرعي. ويقسم الحكم العقلي إلى ثلاثة أقسام :

١- الواجب: مالا يتصور في العقل عدمه، أو بمعنى آخر هو مالا يقبل الانتفاء في ذاته.

٢- المستحيل: مالا يتصور في العقل وجوده، أو بمعنى آخر هو مالا يقبل الثبوت في ذاته.

٣- الجائز: أن يصح في العقل وجوده وعدمه، أو بمعنى آخر هو ما يقبل الثبوت والانتفاء .

وعلى كل حال فمعرفة الله تعالى واجبة (فرض) على كل مكلف (وهو البالغ العاقل) سليم الحواس، الذي بلغته الدعوة، والمعرفة جزم القلب الموافق للحق عن دليل، فلا يكفي الظن في أمر التوحيد لقوله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾، وقوله تعالى: ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ . فلا بد من عقد القلب. ولذلك سمي اعتقاداً وعقداً، كأنه ربط قلبه بذلك الأمر وعقده عليه. والعرب تسمي الأمر المحتم عقداً، ومنه قوله تعالى:

﴿ولا تعزموا عقدة النكاح﴾ .

فأينما وردت كلمة (واجب) فنعني بها الواجب (الأول) من أقسام الحكم العقلي السابق ذكره، فإذا ذكرنا الواجب الشرعي بيّنّاه إن شاء الله تعالى.

وأينما وردت كلمة (مستحيل) فنعني بها المستحيل (الثاني) من أقسام الحكم العقلي السابق ذكره.

وأينما وردت كلمة (جائز) فنعني بها الجائز (الثالث) من أقسام الحكم العقلي السابق ذكره.

وقد اختلف فيمن جزم بالعقائد عنٍ تقليد [1] والراجح أنه مؤمن عاص إن كانٍ قادراً على النظر، ومؤمن غير عاص إن لم يكن قادرا عليه. فإن جزم بالتقليد بحيث لو رجع من قلده عن قوله لايرجع هو عن تقليده كفاه ذلك. قال صاحب الجوهرة:

إذ كلُّ من قلّـَد في التوحيد إيمانـه لم يخـلُ من ترديد

ففيه بعض القوم يحكي الخلفا وبعضهم حقق فيه الكشفا

فقـــال إن يجزم بقـول الغير كفى وإلا لم يـزل في الضير

وصفات ذاته تعالى ـ التي سنذكرها ـ وأسماؤه عظيمة جليلة مطهرة قديمة [2] توقيفية دليلها من كلامه النفسي القديم، لا يجوز أن نصفه تعالى إلا بما ثبت به الكتاب والسنة والإجماع[3] . قال صاحب الجوهرة:

وعندنا أسماؤه العظيمـه كذا صفـات ذاتـه قديمـه

واختير أن اسماه توقيفيه كذا الصفات فاحفظ السمعيه

والدليل على أنها قديمة أنها لو لم تكن قديمة لكانت حادثة، وأنه تعالى كان عارياً عنها في الأزل، وللزم أن يكون لها مخصص (وهو ينافي الغنى المطلق له سبحانه) وكل ذلك محال في حقه تعالى.

الواجبات في حقه تعالى

فيجب لله تعالى عشرون صفة، مع وجوب معرفة أدلتها.

يقول الناظم:

فـهـذه عـقائد التوحيـدِ ننجو بها من ربقة التقليدِ

فاحفظ لمولى الخلق عشرين صفة تكن بها في غرف مزخرفة

---

[1] التقليد هو الأخذ بقول الغير أو بفعله أو اعتقاده من غير أن يعرف دليله، والاختلاف في هذه المسألة على ستة أقوال، انظرها في شرح الباجوري على الجوهرة، أو في مختصرنا على شرح الباجوري على الجوهرة.

[2] مع صفات الأفعال عند الماتريدية خلافاً للأشاعرة فهي حادثة وهي تعلقات القدرة التنجيزية الحادثة.

[3] بالإجماع: كالصانع والموجودوالقديم.

لـه الوجـــود والبقـاء والقـدم مخالف لما ينالـه العـــدم

وقائم بنفسه وواحد فهذه ست صفات تسرد

منها الوجود صفة نفسيه والخمس بعدها هي السلبيه

كما أن الصفاتِ العشرين منقسمة إلى أربعة أقسام: نفسية، وسلبية، ومعانٍ، ومعنوية. ونبدأ بالصفة النفسية وهي واحدة.

□

الأولى ـ صفة الوجود:□

وهي صفة ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد عليها، أي أن ذاته تعالى موجودة لا معدومة، بل لا يتصور عدمها، والوجود عين الموجود[1]، ووجوده تعالى لذاته، لا من مادة وعنصر، وليس موقوفاً على أمر آخر، وليس معلولاً عن غيره ولا هو علة لوجود غيره بل هو الموجد للأشياء قال تعالى: ﴿لم يلد ولم يولد﴾، وهو سبحانه منزّه عن الحلول والاتحاد بشيء من الكون، والدليل على وجوده تعالى حدوث العوالم (أي المخلوقات) إذ هي تتغير من حال إلى حال، فمن عدم إلى وجود، ومن حياة إلى موت ومن غنى إلى فقر، ومن صغر إلى كبر، ومن صحة إلى مرض إلى غير ذلك، وكل متغير حادث أي موجود بعد عدم، وكل حادث لا بد له من محدث وما ذاك إلا الله سبحانه وتعالى، فثبت وجوده واستحال ضده وهو العدم. وما دمنا قد بدأنا بالحديث عن الأدلة فعلينا أن نذكر أقسامها.

وهذه الأدلة في العقائد تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- مالا يصح أن يعلم إلا بالدليل العقلي وهو كل ما لا تتوقف عليه دلالة المعجزة[2] أي وجود الكون، كوجوده تعالى وقدرته وإرادته وعلمه وحياته، التي ستذكر إن شاء الله تعالى.

٢- ما يصح أن يستدل عليه بالدليل الشرعي وهو كل ما تتوقف عليه دلالة المعجزة كالسمع والبصر والكلام والبعث وأحوال الآخرة.

٣- ما اختُلف فيه هو من القسم الأول أو الثاني: كالوحدانية، والله أعلم.

---

[1] كما قال الإمام الأشعري

[2] أي وجود الكون

وتسمى هذه الصفة بالصفة النفسية أي الذاتية، فالله تعالى يقول:

﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ أي على ذاته. وهذه الصفة تنسب للذات لملازمتها لها وهي تدل على الذات بالمطابقة دون معنى زائد عليها (كما تقدم)، ولو رفعت عن الموصوف بها لارتفع الموصوف بها ولم يبق لها عين في الوجود العيني ولا في الوجود العقلي ولهذا تسمى صفة تسامحا .

الثانية ـ القدم أي أنه غير مسبوق بعدم، فلا أول لوجوده تعالى، قال تعالى ﴿هو الأول﴾ أي بلا بداية، ولا يدخل في وجوده زمان ولا مكان، فإنه سبحانه السابق على الزمان والمكان، كان ولا زمان ولا مكان.

وليس القدم بمعنى طول الأزمنة كما في قوله تعالى ﴿حتى عاد كالعرجون القديم﴾، بل معناه كما تقرر، وحينئذ يجب اعتقاد حدوث العالم بأسره، ولا عبرة بقول الفلاسفة القائلين بقدم العناصر، وهي الماء والتراب والرياح والنار، لأنه وإن كانت أصلاً للحوادث لكنها متغيرة، وكل متغير حادث، فالقديم حقيقة هو الخالق الموجد لكل شيء .

واعلم أنه يقع في تعبير من يتساهل في العبارة أنه ﷺ (نور من القدم، أو من الأزل أو كان نوراً في القدم من العماء) فهذا التعبير باطل مردود على قائله[1] ، فإنه ﷺ من جملة خلق الله وهو سيدهم، والقصد بهذا التعبير تقديم نوره في الوجود على كل شيء، لا مقارنة الأزل أو العماء الذي هو الأزل أو الأحدية، فليس لأحد أن يتصف بصفات الله تعالى ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ .

فذاته ﷺ وحقيقته حادثة (كان الله ولا شيء معه)[2] .

والدليل على قدمه تعالى أنه لو لم يكن قديماً لكان حادثاً (أي موجوداً بعد عدم) فيفتقر إلى محدث (أي موجد) ولو افتقر إلى محدث لزم أن يفتقر محدثه إلى محدث، ومحدث محدثه إلى محدث، وهكذا فيلزم الدور وهو توقف شيء على آخر يتوقف عليه، وفي النهاية نصل إلى موجَد وموجد وهذا مستحيل. وليس هذا فقط بل ويلزم التسلسل وهو تتابع الأشياء واحداً بعد واحد إلى مالا نهاية له في الزمن الماضي، كما إذا قيل: إن زيداً أحدثه عمرو وإن عمراً أحدثه بكر وإن بكراً أحدثه خالد وهكذا إلى ما لا نهاية له. والدور والتسلسل محال لأدلة كثيرة مذكورة في المطولات.

---

[1] إن أراد به الايجاد، وأما إن أراد به قدم العلم فهو صحيح والله أعلم.

[2] أخرجه ابن حبان الحاكم وابن أبي شيب عن بريده قال القاري: ثابت. كشف الخفاء .

الثالثة ـ البقاء:

أي أنه لا آخر له، فهو مستمر لا ينقطع وجوده، قال تعالى ﴿هو الأول والآخر﴾ و﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ فهو سبحانه الأول بلا بداية، الآخر بلا نهاية، وإلا احتاج إلى الموجد فكان حادثاً، ووجب له من العجز ما يجب لسائر الحوادث، بل يكون وجوده مستحيلاً لما يلزم على تقدير حدوثه من الدور (أن ينتهي العدد وينحصر، والتسلسل (ألا ينتهي العدد) هذان مستحيلان، كما تقدم، والدليل على بقائه تعالى أنه لو لم يكن باقياً لأمكن أن يلحقه العدم، ولو لحقه لكان حادثاً لتغيره من الحالة التي كان عليها، وكونه حادثاً محال لما تقدم من ثبوت القدم له تعالى، وقد اتفق العقلاء على أن من وجب قدمه استحال عدمه.

وهذا البقاء واجب له تعالى، وأما ما تقرر في الشريعة الغرّاء من دوام الجنة والنار والعرش وأهل الدارين وما فيهما من نعيم وعذاب والحور العين (على القول بأنهم خلق جديد غير نساء الدنيا) والولدان (على القول بأنهم خلق جديد غير ولدان الدنيا) فهذا البقاء جائز في ذاته، يجوز عليه التغير من حالة إلى حالة، ووجوده تعالى لم يتغير، فبقاؤه واجب لذاته لا لغيره، وبقاؤنا إنما كان لوعد الله ولا يخلف الميعاد، ولكن دخلوا في الواجب العَرَضي (الشرعي) حيث أخبر الله ببقائهم.

الرابعة ـ مخالفته تعالى للحوادث فيذاته وصفاته وأفعاله:

بمعنى أنه ليس مماثلاً لشيء من المخلوقات، فليس جسماً ولا عَرَضاً ولا محتاجاً إلى حركة أو سكون أو مكان، ولا قيام ولا قعود

ولا جهة ولافوق ولا سفل ولا يكون فوق العالم أو تحته، ولا يقال كيف هو، ولا أين هو ولا ما هو، ولا لماذا فعل كذا أو حكم بكذا وقد وضع علماء التوحيد عبارتهم المشهورة في هذا الباب

وهي « كل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك » .

والعمدة في هذه العقيدة قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (الشورى) ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ والدليل على مخالفته تعالى للحوادث أنه لو لم يكن مخالفاً لها لكان مماثلاً لها، ولو كان مماثلاً لها لكان حادثا مثلها، وذلك محال لما ثبت من قوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ .

و«ليس» من الألفاظ الأربعة الدالة على التنزيه التي هي: ليس، لم، ما، لا. وهذه الأربعة مذكورة في كتاب مولانا عز وجل لبيان التنزيه، أولاها: ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ .ثانيها: ﴿لم يلد ولم يولدولم يكن له كفوا أحد ﴾ . وثالثها: ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾ رابعها: ﴿لاتأخذه سنة ولا

نوم﴾ - ﴿وهو يطعم ولايطعم﴾ - ﴿وهو يجير ولايجار عليه﴾وفي سبعة وثلاثين موضعا من القرآن:

لاإلـــه إلا الله

ومما يدلنا على عدم إدراكنا له سبحانه وعدم الإحاطة بكنهه أننا إذا تأملنا في تدبير أرواحنا لأجسامنا، ونحن هي وهي نحن، وعجزنا عن إدراك حقيقتها وعن كيفية تصرفها في أجسامنا وأين قرارها منا حال نومنا، ومن أين تأتينا عند يقظتنا، وكيف يدخلنا الألم والفرح والحزن والغضب والحلم واللطف والرحمة. . . وما شاكل ذلك من العوارض ونحن نجزم بوجودها علمنا عظم الخالق لها والمدبر، وأيقنا بعجزنا عن معرفة حقيقته تعالى، لأن العجز عن إدراك المصنوع مع مشاهدته أو مشاهدة أثره أعظم دليل على العجز عن إدراك من صنع ذلك، وأنه عظيم فوق جميع ذلك، ولأجل هذه السَّعة غلبت عظمته تعالى على قلوب الخلق وتكلموا بالكلمات العظيمة كالإمام الغزالي رضي الله عنه وأرضاه الذي قال: « ليس في الإمكان أبدع مما كان» وهذا ليس تعجيزا للأقدار بل من شِدة الاستغراق في أسرار الكائنات، وأن ما ظهر مطابق للعلم الأزلي بحيث لا يمكن أن يوجد غير ما عَلمَه الله تعالى، وهذا لا يعني نسبة عجز إلى الله تعالى، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وكالبسطامي رضي الله عنه يقول: « خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله » ولا شك أن بحر التوحيد بحر لا ساحل له وأن الأنبياء جاوزوه من دون خوض فيه (وهبا وليس كسبا)، لأن الله تعالى ربط قلوبهم به فلا يحتاجون لأمر آخر بخلاف غيرهم كالبسطامي فإنه مازال يخوض في هذا البحر بينما الأنبياء قد وصلوا إلى ساحله من الجهة الأخرى، وهذا مقصود هذه العبارة، فسبحان من أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا .

وليعلم أن بعض أهل الضلالة قد مثلوا ربَّ العزّة بخلقه (كفرعون وأضرابه) فقالوا: إن صح أن سيدنا جبريل كان يتمثل بصفة دحية الكلبي وبصفة أعرابي يأتي النبي بالوحي، وتمثل لمريم بشرا سويا، ومع هذه الحالة هو جبريل بعينه لم يتغير عن الملكية فقالوا: إذا قدر المخلوق على أن يتطور ويتلون بأشكال مختلفة، فالخالق القادر على ذلك أقدر بأن يظهر في صورة مخصوصة أو في صورة الكون، فجسموا وشبهوا وجوزوا الحلول ومرقوا من الدين كالسهم من الرمية، واتسع الخرق معهم زمن الفاطميين فاعتقدوا فيهم الربوبية ولا سيما الحاكم بأمر إبليس منهم، فإنه توغل في هذا الشأن.

وهذا جهل عظيم بقياس من ليس له مثل على من له مثل، فإن جبريل جسم نوراني حادث يقبل التغير والتنقل، والخالق تعالى ليس من عنصر ولا مادة سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا

وحينئذ فكل نص أوهم التشبيه فلا بد من تأويله وصرفه عن ظاهره على مذهب الخلف، وسيأتي الكلام على التأويل بإذن الله.

وإذا ألقى الشيطان إلى ذهن أحد:

- إذا لم يكن المولى كما ذكر فما حقيقته؟

فليقل في الرد عليه: لا يعلم حقيقة الله إلا الله ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ ﴿ما قدروا الله حق قدره وهو السميع البصير﴾.

الخامسة - قيامه تعالى بنفسه (أو الغنى):

أي قيامه بذاته غنياً عن المحل والموجد، بمعنى أنه لا يحتاج إلى محل بأن يكون صفةً يحتاج إلى ذات ليظهر بها، وغير محتاج إلى مخصص أي فاعل يؤثر فيه الوجود، فهو الغني بذاته عن كل شيء ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾ (سورة فاطر)، ولأنه لو كان له موجد لاحتاج موجده لمن يوجده، وهكذا حتى يدور الأمر ويتسلسل وكلاهما محال على الله تعالى.

ومن جملة استغنائه أنه تعالى ليس صفة يقوم بغيره، كما أن البياض والسواد والحركة والسكون قائماتٍ بالأجسام، فليس هو بجسم يملأ الفراغ، ولا عَرَض يقوم بغيره كقيام الصفة بموصوفها وكونه صفةً محال لاتصافه تعالى بالصفات الوجودية كالقدرة والإرادة، والصفة لا تتصف بها لما يلزم على ذلك من قيام المعنى بالمعنى كقيام القدرة بالبياض وهو باطل. بل هو الغني عن كل شيء، الذي لا يحتاج لشيء، ولا يتكمل بشيء، فهو فاعل مختار.

والموجودات بالنسبة إلى المحل والموجد أربعة أقسام:

١- قسم لا يحتاج إليها هو ذات الله سبحانه وتعالى.

٢- قسم يقوم بالمحل أي بالذات ولا يحتاج إلى موجد وهو صفات الله تعالى فإنها قديمة قائمة بالذات العليه.

٣- قسم يحتاج إليها وهو صفات الحوادث.

٤- قسم لا يحتاج إلى المحل أي الذات التي يقوم بها ويحتاج إلى الموجد وهو ذات الحوادث.

والدليل على قيامه تعالى بنفسه أنه لو لم يكن قائماً لاحتاج إلى محل أو موجد، ولو احتاج إلى محل أو موجد لكان حادثاً، وذلك محال لما ثبت من قدمه تعالى ولما ثبت في الكتاب: ﴿الله لا

إله إلا هو الحي القيوم﴾ وقوله تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ .

والخلاصة فإن العبد تحت قهره تعالى، فصفة العبد العجز والجهل والفقر والضعف، وصفة الحق تضادُّ صفة العبد، لأن صفته تعالى الغنى والقدرة والعلم والقوة وغيرها من صفات الكمال. قال أبو سعيد الخرّاز: « من عرف نفسه عرف ربه » ومعناه: إذا عرف العبد نفسه بالجهل عرف ربه بالعلم، وإذا عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة، وإذا عرف نفسه بالفقر عرف ربه بالغنى، وهكذا . . .

السادسة ـ الوحدانية:

وهي عدم وجود شريك له تعالى في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، المنفرد بالإيجاد والإمداد، ولا مؤثر معه في فعل من الأفعال، وإلا لما كان واجب الوجود لاحتياجه إلى من يخصصه أو من يستعين به، وهو يستلزم الحدوث والعجز عن كل ممكن، وهذا محال على الله تعالى، قال تعالى ﴿ وإلهكم إله واحد لاإله إلا هو ﴾ (البقرة) .

وذاته تعالى ليست مركبةً من أجزاء، وليس هناك ذات تشبه ذات مولانا، وهو واحد في صفاته أيضاً فليس له صفتان من جنس واحد بل قدرة واحدة، وإرادة واحدة. . . وهكذا، وليس لغيره صفة تشبه صفته تعالى، وهو واحد في أفعاله، فليس لغيره تأثير ما في فعل من الأفعال.

ويعبر علماء التوحيد عن هذه الأمور الثلاثة (أي أنه تعالى واحد في ذاته، وواحد في صفاته، وواحد في أفعاله) بالكموم الخمسة، ويفصّلون فيقولون:

أقسام الوحدانية ثلاثة: (الكموم الخمسة)

١ـوحدانية في الذات: ومعناها:

آ – عدم التركب في الذات. والتركب في الذات يقال له : كم متصل. ب ـ وعدم التعدد فيها . والتعدد في الذات (بأن يكون هناك إله ثانٍ) يقال له كمٌّ منفصل فيها .

٢ـووحدانية في الصفات: ومعناها:

آ – عدم تعدد صفتين من جنس واحد كقدرتين وإرادتين.

ب – وعدم ثبوت صفة لغيره كصفته تعالى، كأن يكون لغيره قدرة كقدرته، أو علم كعلمه.

– ووجود صفتين من جنس واحد يقال له كم متصل في الصفات، لأن قيام صفتين مثلاً من جنس واحد بذات واحدة منزَّلة مَنْزلة التركب من أجزاء، فلا يقال إن الكم المتصل لا بد فيه من الاتصال والتركب من أجزاء، ولا تركَب في تعدد الصفات.

ب – ووجود صفة لغيره تشبه صفته تعالى يقال له كم منفصل في الصفات.

٣–ووحدانية في الأفعال: ومعناها:

نفي تأثير غيره في فعل ما بل الأفعال كلها لله سبحانه قال تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ أي خلقكم وخلق عملكم. وهذا دليل وحدة الأفعال بمعنى أنه لا تأثير لغيره في فعل من الأفعال.

ووجود فعل لغيره تعالى مع فعله يقال له: كم منفصل في الأفعال.

وليس فيها كم متصل[١] .

وعلى كل حال: فالوحدانية في الذات نفت الكمين المتصل والمنفصل في الذات، والوحدانية في الصفات نفت الكمين المتصل والمنفصل في الصفات، والوحدانية في الأفعال نفت الكم المنفصل في الأفعال.

والدليل على الوحدانية أي ثبوتها له تعالى أنه لو لم يكن واحداً لكان متعدداً، ولو كان متعدداً لما وجد شيء من المخلوقات، كيف وقد وجد فظهر أن الموجد واحد، قال تعالى ﴿قل هو الله أحد﴾ وقال أيضاً ﴿لو كان فيهما[٢] آلهة إلا الله لفسدتا[٣]﴾. فالمراد في هذا الآية عدم وجودهما على الراجح، وقيل المراد به الخراب والخروج عن هذا النظام لما تقرر عادة من فساد المملكة عند تعدد الملوك لأن كل واحد تدعوه نفسه أن يتغلب على غيره، وينفرد بالملك فيحصل الفساد في العالم.

ودليل وحدة الذات (عدم تركبها من أجزاء) هو نفسه دليل المخالفة للحوادث.

---

[١] فإن قيل فيها بالكم المتصل فمعناه ليس له من يستعين به أو يستشيره.

[٢] أي الأرض والسموات.

[٣] أي لم توجدا.

ودليل وحدة الصفات (عدم تعددها من جنس واحد): لأن تعددها لا يقتضيه معقول ولا منقول مع وجوب الكمال لكل منها، وهذا ينافيه التعدد، ولأنه لو كان له قدرتان مثلاً يلزم عجز كل منهما عن إيجاد الشيء بمفردها.

ولا يلتفت إلى من قال: إن العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرة خلقها الله تعالى، فهذا كلام باطل.

وكذا من يزعم أن الأكل يؤثر في وجود الشبع، والشرب في وجود الري، والنار في وجود الإحراق، والسكين في وجود القطع بقدرة جعلها الله في جميعها، فهو باطل، لأن الأسباب لا تؤثر بطبعها وذاتها فمن ادعى ذلك كفر، ومن قال تؤثر بقوة خلقها الله فيها فهو فاسق. قال ناظم التوحيد:

ومن يقل بالطبع أو بالعله ْ فذاك كفرٌ عند أهل الملهْ

ومن يقل بالقوة المودعةِ فذاك بدعيٌ فلا تلتفتِ

ومن اعتقد أن المؤثر هو الله تعالى لكن جعل بين الأسباب وَمُسَبَّبَاتها تلازماً عقلياً بحيث لا يصح تخلفه فهو جاهل.

وأما عقيدتنا في ذلك فهو أن المؤثر هو الله تعالى، وأن بين الأسباب ومسبباتها تلازماً عادياً بحيث يصح تخلفه، ونرجو من الله تعالى أن نكون من الناجين يوم القيامة.

وهذه الصفات الخمسة المتقدمة (القدم ـ البقاء ـ مخالفته للحوادث ـ قيامه بنفسه ـ الوحدانية) تسمى عند علماء التوحيد صفات السلب، لأن كل صفة منها تدل على نفي ضدها، والسلب هو نفي أمر لا يليق بمولانا عز وجل فالصفات السلبية ثابتة له لامسلوبة عنه:

- ١٢إذ القدم سلب الحد لأولية الوجود عنه تعالى.
- ١٣والبقاء سلب الحد لآخرية الوجود عنه تعالى.
- ١٤والمخالفة للحوادث سَلَبَ المماثلة لها.
- ١٥والقيام بالنفس سلب الافتقار.
- ١٦والوحدانية سلب التعدد.

صفات المعاني: يقول الشيخ عبد المجيد الشرنوبي رحمه الله تعالى:

وواجب لربنا المنّانِ سبع صفات سميت معاني

عِلْمٌ إرادةٌ وقدرةٌ بصرْ سمعٌ كلامٌ وحياةٌ تعتبره

ومن الصفات التي يتصف بها مولانا عز وجل صفات المعاني وهي سبعة[1] : القدرة،والإرادة،والعلم،والحياة،والسمع،والبصر،والكلام.

وسميت بصفات المعاني لأنها تدل على معنًى قائم بذاته تعالى، فتقول مثلاً إن قدرة زيد ظاهرة للناس وكذا علمه ومشيئته، ولما كانت ظاهرة في الحادث لا تنفك عنه سمّوها صفات الذات. وصفات المعاني إضافتها بيانية: أي صفات هي المعاني.

وهذه الصفات نفاها المعتزلة فراراً من تعدد القدماء، فقالوا: لو ثبتت لزم أن يكون الإله مركباً من ثمانية أشياء، وقد كفر النصارى بالتثليث فكيف بثمانية، وقالوا هو سبحانه: قادر بذاته، حي بذاته، سميع بذاته، بصير بذاته، متكلم بذاته، وليس له هذه الصفات . وقولهم هذا ردَّ عليه علماء التوحيد من أهل السنة فقالوا:

هذا جهل، لأن المحال هو تعدُّدُ الذات لا ذات واحدة اتصفت بصفات، ومن المعلوم عند كل واحد أنه لا يقال لزيد عالم إلا إذا اتصف بصفة العلم. وقد دلت النصوص على ثبوت قدرته وعلمه تعالى، وهذه الصفات ليست عين الذات حتى يحصل تركيب، ولا غير الذات بمعنى أنه لا يصح انفكاكها عنه[1]، ولتمثيل ذلك يقال: إن علم زيد لا عينه ولا غيره. والله أعلم.

وصفات المعاني هي صفات قديمة أزلية قائمة بذات الله تعالى[2]

السابعة القدرة:

صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى، يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق إرادته تعالى، ولا تتعلق هذه الصفة إلا بالممكنات الجائزات، وهي جميع الخلق، فلا تتعلق بالواجب كذاته

---

[1] عند الماتريديه ثمانية ، يضيفون إليها صفة التكوين وهي (عندهم) صفة قديمة قائمة بذاته تعالى يتأتى بها الإيجاد والإعدام وهي المراد عندهم من صفات الأفعال، لأنهم يقولون: إن تعلقت بالخلق تسمى خلقاً، وإن تعلقت بالرزق تسمى رزقاً، وإن تعلقت بالإحياء تسمى إحياءً . . وعلى هذا فصفات الأفعال عندهم قديمة. وأما مذهبنا (الأشاعرة) فهي صفة حادثة أي صفات الأفعال حادثة، انظر الباجوري على السنوسية.

[1] يجب ملاحظة هذا الأمر بعناية لأن بعض علماء عصرنا وقفوا فيها، وجروا على الفصل بين الذات والصفة، قالوا هروباً من الحلول، لكن ماذكرته هو الحق الذي تلقيناه عن شيخنا الإمام الشاغوري.

[2] بحيث لو كشف عنا الحجاب لرأيناها قائمةً بذاته تعالى أي أنه متصف بها ومتحقق وجودُها به. وهذه الصفات أزلية يستحيل تقدم بعضها على بعض في الوجود .

[3] تابعت ترقيم الصفات العشرين المتقدم أنها عشرون صفة له جل وعلا.

تعالى ولا بالمستحيل كالشريك لأنه يلزم من ذلك قلب الحقائق[٤] ، ومنه قول من لا يستحيي: ـ هل يقدر على خلق الولد ؟ ! !

فمثل هذا لا يقال، لأن القدرة لا تتعلق بمستحيل ولا بواجب.

وأما قوله تعالى: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾، فهي جملة شرطية ونتيجتها: لكنا لم نرد، فلا يقع ذلك لأنه محال.

وأما قوله تعالى: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ فمعناه كما قيل: لو فرض ذلك لكنتُ أول من يؤمر به، أو أول عالم بذلك، لأنه ﷺ أول الأمة علماً وعملاً، لكن هذا العلم لم يكن فليس لله ولد سبحانه، ولأن هذا تعليق مستحيل على مستحيل أي لما تعلقت العبادة على وجود مستحيل استحال وجودها .

وللقدرة تعلقان:

- **تعلق صلوحي قديم:** بمعنى أنها في الأزل صالحة لكل ممكن أن تتعلق به.

- **تعلق تنجيزي حادث:** وهو عبارة عن إيجاد الشيء بالفعل أو إعدامه على وفق الإرادة.

فكل ما أراد الله إيجاده أوجده، وكل ما أراد إعدامه أعدمه، فلا يخرج عن قدرته ممكن، إذ لو خرج فرد من الممكنات لكان مستغنيا عن الواحد القهار، وذلك محال. والممكن يجوز عليه الوجود والعدم على حد سواء، فترجيح أحد الطرفين على الآخر لا بد له من فاعل مختار وهو الله تعالى ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ والدليل على القدرة أنه لو انتفت عنه لكان عاجزاً عن الإيجاد والإعدام، ولو كان عاجزاً عن ذلك لما وجد شيء من المخلوقات مع أن وجودها ثابت بالمشاهدة وأما كونها موجودةً بالعلة أو الطبع فكلام باطل لا يلتفت إليه لا يعول عاقل عليه لقوله تعالى: ﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفُواً أحد﴾ .

ومن العامة من يقول: انظر إلى فعل قدرة الله تعالى. والمقصود انظر إلى آثارها من الأكوان، كالسماء وما فيها والأرض وما عليها، وليس المراد حقيقة القدرة أنها هي الفاعلة، إذ القدرة لا تقوم بغير الذات، وقد أرشدنا سبحانه وتعالى إلى هذا بقوله: ﴿فانظر إلى آثار رحمة

---

[٤] لأنها إن تعلقت بالواجب فهي إما توجده وهو موجود، وإما لتعدمه، وهو لا يقبل العدم بحال، ولأنها إن تعلقت بالمستحيل فإما لتوجده وهو لا يقبل الوجود بحال، وإما لتعدمه وهو معدوم أصلاً، ويظهر من هذا أن عدم تعلقها بالواجب أو المستحيل إنما كان لأنهما خارجان عن وظيفتها وهي الإيجاد والاعدام لا لعجز فيها .

الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾ فإنْ قَصَدَ هذا المعنى (أن القدرة هي الفاعلة) كان قوله حراماً، أما إذا اعتقد أن القدرة تؤثر بنفسها فهو كفر والعياذ بالله تعالى.

الثامنة ـ الإرادة أو المشيئة:

وهي صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى، يخصّصُ الله بها الممكنات ببعض ما يجوز عليها على وفق علمه تعالى، كأن يخصص زيداً بالغنى وعمراً بالفقر أو بالوجود أو بالعدم، أو بالجهل أو بالعلم، أو بالطول أو بالقصر.. لأن الممكنات جميعها يجوز عليها الوجود والعدم والمقادير (أي الأجسام) والألوانِ والهيئات (أي الصفات) والجهات والأزمنة والأمكنة، وقد تكون إحدى الممكنات مخصوصاً ببعض هذه الأشياء دون بعض بمشيئته تعالى، لأنه فاعل مختار﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾،﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾

﴿ ولو شئنا لرفعناه بها﴾ .

والدليل على ذلك أنه لو انتفت عنه لكان مكرَهاً، ولو كان مكرهاً لكان عاجزاً، وكونه عاجزاً محال لما تقدم من ثبوت القدرة له تعالى الذي يقول: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ .

فكل شيء ينشأ عن إرادته من دون تغيير ولا تبديل. والإرادة مرتبة عقلاً على العلم كما تقدم.

وللإرادة تعلق تنجيزي قديم:

وهو تخصيص الله الشيء أزلاً بالصفات التي يعلم أنه يوجد عليها في الحس، أو هو مقارنة الموجود لإيجاده والمعدوم لإعدامه كما سبق تخصيصه أزلاً.

ومما ينبغي أن يعلم أن الإرادة غير الأمر وغير الرضى؛ فليس بينها تلازم لأنه سبحانه:

يأمر ويريد: كإيمان الرسل وملائكته عليهم الصلاة والسلام وسائر المؤمنين.

ولا يأمر ولا يريد: كالكفر منهم والعياذ بالله تعالى.

ويريد ولا يأمر: كالمعاصي من الخلق والعياذ بالله تعالى.

ويأمر ولا يريد: كالإيمان ممن سبق في علم الله كفره، أمره بالإيمان ولم يرده منه فلم يقع، أمر الخليل إبراهيم بذبح ولده إسماعيل ولم يرده منه.

ولا يقال: كيف طلب منه الإيمان ولم يرده له، وقضى عليه الكفر، لأنه تعالى: ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾.

وقد سبق وعيده ﷻ :

﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾، وفعله سبحانه وتعالى بالاختيار لا بالطبع ولا بالإكراه.

وفي كتاب محاسن المساعي إلى مناقب الأوزاعي أنه كان على عهد هشام بن عبد الملك رجل قَدَري[1] فبعث إليه هشام فقال له: قد كثر كلام الناس فيك!! قال: نعم يا أمير المؤمنين! أدع من شئت فيجادلني فإن أدركت عليّ بسبب فلقد أمكنتك من عَلاَوتي (يعني رأسه).. فقال هشام: قد أنصفت.

فبعث هشام إلى الأوزاعي فلما حضر الأوزاعي قال هشام:

يا أبا عمرو ناظر لنا هذا القدري.

فقال له الأوزاعي: اختر إن شئت ثلاث كلمات وإن شئت أربع كلمات وإن شئت واحدة.

فقال له القدري: بل ثلاث كلمات.

فقال الأوزاعي: أخبرني عن الله عز وجل: هل قضى على ما نهى؟

قال القدري: ليس عندي في هذا شيء فقال الأوزاعي هذه واحدة . ثم قال الأوزاعي : أخبرني عن الله هل حال دون ما أمر ؟

قال القدري : هذه أشد من الأولى ما عندي في هذا شيء. فقال الأوزاعي: هذه اثنتان يا أمير المؤمنين.

فقال الأوزاعي: أخبرني عن الله عز وجل هل أعان على ما حرّم. فقال القَدَري: هذه أشد من الأولى والثانية ما عندي في هذا شيء. فقال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين هذه ثلاث كلمات. فأمر هشام فضرُبت عنقه.

فقال هشام بن عبد الملك للأوزاعي: فسر لنا هذه الثلاث الكلمات، وما هي؟

---

[1] انظر تعريف القدرية في المعجم آخر الكتاب ص ٣١٤.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، أما تعلم أن الله تعالى قضى على ما نهى، نهى آدم عن الأكل من الشجرة ثم قضى عليه بأكلها فأكلها . وأن الله تعالى حال دون ما أمر؛ أمر إبليس بالسجود لآدم ثم حال بينه وبين السجود، وأن الله تعالى أعان على ما حرّم؛ حرّم الميتة والدم ولحم الخنزير ثم أعان عليه بالاضطرار إليه.

فقال هشام فأخبرني عن الواحدة، ما كنت تقول له؟ قال: كنت أقول له:

– أخبرني عن مشيئتك دون مشيئة الله عز وجل، فبأيهما أجابني حل ضَربُ عِنقِهِ.

قال: فأخبرني عن الأربع الكلمات ما هن؟ قال كنت أقول له:

١– أخبرني عن الله عز وجل حيث خلقك كما شاء أو كما شئت؟ فإنه يقول: كما شاء .

٢– أخبرني عن الله عز وجل حيث يرزقك كيف شاء أو كما شئت فإنه كان يقول: كما شاء .

٣– أخبرني عن الله عز وجل حيث يتوفاك إذا شئت أو إذا شاء فإنه كان يقول: إذا شاء .

٤– أخبرني عن الله عز وجل إذ توفاك أين تصير حيث شئت أو حيث شاء؟ فإنه يقول: حيث شاء .

قال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين! من لم يمكن أن يحسن خلقه، ولا يزيد في رزقه، ولا يؤخر في أجله، ولا يصيّر نفسه حيث شاء، فأي شيء في يده من المشيئة يا أمير المؤمنين.

قال: صدقت يا أبا عمرو.

التاسعة ـ العلم

صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى، تنكشف له تعالى بها الأشياء انكشافاً تاماً من غير سبق خفاء، فالعلم صفة كشف وجلاء لاصفة تأثير، فيعلم سبحانه ما هو عليه وما يجب له وما يستحيل (أي العلم متعلق بكل الواجب والجائز والمستحيل) ويعلم كل شيء بما فيه تفصيلاً، ويعلم استحالة الشريك والولد، كيف وقد كرر الله في كتابه العزيز أدلة توحيده وعلمه حتى قال:

﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ .

﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ .

﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾ .

﴿وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا﴾ .

﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ .

﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ .

وربما عظمت في عقل العبد هذه الإحاطة، فليرجع إلى قوله تعالى:

﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ .

ولقوله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطوياتٌ بيمينه﴾ .

فأعلمنا الحق عنٍ عظمته بتقليل الكون، حيث شبهه بقبضته يتصرف فيها قابضها من دون مشقة ولا عناء قبضا هو أعلم به ﴿ليس كمثله شيء﴾ ، فسبحان اللطيف الخبير.

والدليل على العلم أنه لو انتفى عنه لكان جاهلاً، ولو كان جاهلاً لم يكن مريداً إذ الجاهل بالشيء لا يصح أن يريده وهو محال لما تقدم من ثبوت الإرادة له تعالى ولقوله تعالى ﴿ فعالٌ لما يريد ﴾ .

ومن أنكر علم الله تعالى بالجزئيات كفر، كقول الفلاسفة الذين كفروا بإنكار حدوث العالم وحشر الأجساد:

بثلاثةٍ كفر الفلاسفة العدا إذ أنكروها وهي حقاً مثبتهْ

علمٍ بجزئي، حدوثِ عوالمٍ حشرٍ لأجسادٍ وكانت ميته

الصفة العاشرة ـ الحياة:

وهي صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى، يستحيل وجود الصفات بدونها، فهو الحي الدائم القيوم الباقي، وحياته تعالى لذاته[1]

وهي شرط عقلي في أن تتصف الذات العلية بصفات المعاني والمعنوية، وحياته تعالى ليست مماثلة لحياة الأنام، أما حياتنا فهي

---

[1] أي ليست بروح، بعكس المخلوقات فحياتها بالروح، كما ذكره الأئمة في هذا الباب.

شرط عادي قد تتخلف بمعنى أن الميت قد يتكلم، وأن الحي منا قد لا يتكلم، ألم نقرأ قوله تعالى: ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ .

والدليل على صفة الحياة أنه إذا انتفت عنه تعالى كان ميتاً ولو كان ميتاً يلزم منه انتفاء العلم وغيره من الصفات، ويلزم من انتفاء العلم انتفاء الإرادة، ومن انتفاء الإرادة انتفاء القدرة، ومن انتفاء القدرة عدم وجود شيء من المخلوقات، وهو باطل لأنها موجودة بالفعل، فسبحان الحي القيوم الذي يقول في كتابه: ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ .

الصفة الحادية عشرة والثانية عشرة ـ السمع والبصر:

وهما صفتان وجوديتان قائمتان بذاته تعالى، ينكشف بهما كل موجود على ما هو عليه انكشافاً بيناً سواه ضرورة. لكن يجب الاعتقاد أن الانكشاف الحاصل بالسمع غير الانكشاف الحاصل بالبصر، وأن الانكشاف الحاصل بكل منهما غير الانكشاف الحاصل بالعلم، وأن لكل من هذه الانكشافات الثلاثة حقيقة يفوّض علمها إلى الله تعالى أي أن سمعه وبصره غير سمعنا وبصرنا، فليس سمعه وبصره تعالى بآلةٍ لأنه تعالى ليس مُجَسَّمَاً ولا مركباً كما تقدم.

الصفة الثالثة عشرة: الكلام

وهي صفة وجودية قائمة بذاته تعالى تدل على كل معلوم.

فهو تعالى متكلم بكلام منزّه عن الحرف والصوت والتقديم والتأخير والكل والبعض، والتجديد والسكون واللحن والإعراب وسائر أنواع التغيرات، وتعلق الكلام بما تعلق به العلم من المتعلقات (الواجب والجائز والمستحيل) إلا أن تعلق العلم تعلق انكشاف وتعلق الكلام تعلق دلالة على كل معلوم، وكيفية الكلام مجهولة لا يعلمها إلا الله تعالى.

والدليل على ثبوت السمع والبصر والكلام له تعالى دليل سمعي وهو قوله تعالى: ﴿ وهو السميع البصير ﴾ وقوله ﴿ وكلم اللهُ موسى تكليماً ﴾ .

أي: أزال الحجاب حتى أدرك كلامه القديم بجميع أعضائه من جميع الجهات ثم رد عليه الحجاب، وليس المعنى أنَّه ابتدأ له الكلام بعد أن كان ساكتاً، ولا أنه بعد أن كلّمه انقطع كلامه، لأن كلامه تعالى قديم باقٍ لا ينقطع.

ولو لم يكن سميعاً ولا بصيراً ولا متكلماً كان أصمَّ وأعمى وأبكم وذلك نقص، والنقص عليه تعالى محال.

وقد كثر فيه الجدل ولا سيما في عصر إمامنا الشافعي رضي الله عنه حتى قال: « دعونا من علم إذا أخطأ فيه الإنسان يقال له كفر، وعليكم بعلم إذا أخطأ فيه الإنسان يقال له أخطأ » .

ولما كثر الكلام والجدل في صفة كلامه تعالى سموا علم التوحيد: « علم الكلام » .

إذ قالت المعتزلة: إن كلامه تعالى مخلوق، فهو متكلم بكلام يخلقه، وهو مردود لأن الله تعالى سمّى القرآن الكريم منزّلاً في آيات الكتاب ولم يسمّه مخلوقا، فنقف عند تسميته تعالى.

وقال جمع: يتكلم بحروف قديمة، وهو باطل، لأن الحروف لها تكيف وهيئات ومخارج، وذلك عين الحدوث.

وقال آخرون: ورق المصحف وجلده ونقشه قديمات، وهذا ظاهر البطلان.

وأما مذهب أهل السنة فهو الحق لا مرية فيه، وهو أن كلامه النفسي القائم به تعالى المعبّر عنه بأنواع العبارات المختلفات صفته تتعلق بالواجب والجائز والمستحيل لا حرف لها ولا صوت وهو منزه عن التقديم والتأخير، فالمخلوق يقدم ويؤخر في الحروف في اللفظ كقوله ﴿الحمد لله﴾ فينطق بالحاء قبل الميم، أما الكلام النفسي القائم به تعالى فهو منزّه عن ذلك، وهو بها آمرٌ ناهٍ مخبر، ولا يعلمها إلا هو تعالى وحده، ومعنى هذا أن للكلام أقساما اعتبارية.

١فمن حيث تعلقُه بطلب فعل الصلاة (مثلاً) أمر؛
٢ومن حيث تعلقه بطلب ترك الزنا (مثلاً) نهي؛
٣ومن حيث تعلقه بأن فرعون فعل كذا (مثلاً) مخبر؛
٤ومن حيث تعلقه بأن المؤمن له الجنة وعد؛
٥ومن حيث تعلقه بأن الكافر له النار وعيد .

وعليه فنعتقد أن خطابه لسيدنا موسى وسيدنا آدم ولسيدنا محمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين كخطابه لنا المسموع من القرآن، لأن موسى سمعه من الشجرة وهي حادثة، والملائكة يأخذون من اللوح وهو حادث، فعلينا أن لا نظن أن ما قام بالحق يقوم بجبريل كما وَهِمَ فيه بعضهم.

فلا يصل لنا كلامه تعالى إلا بواسطة حروف وأصوات، وأما القائم بذاته تعالى فهو القديم المنّزه عن الحروف والأصوات وما يتبعهما من الكيفيات.

وأما القرآن الكريم والكتب المنزلة من السماء والحديث القدسي والصحف الربانية فكل ذلك كلامه تعالى. وقال كثير من العلماء: إن اللفظ حادث والمعنى قديم وهذا قول صحيح، ورضي الله عن الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت الذي لخّص البحث فقال: « ما قام بالمخلوق مخلوق، وما قام بالخالق قديم » .

وسيأتي بحث الكتب السماوية في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وحين قرأت هذه الفقرة على إمامنا الشيخ الشاغوري قال: « الحق عز وجل كلامه عن علمه، وما دام علمه قديماً، فالقرآن كلام الله قديم » نفعني الله تعالى به وبجاله.

وإذا حَدَّثت العبد نفسه بالاطلاع على حقيقة كلامه تعالى فليرجع إلى كلام نفسه فإنه لا يقدر على إدراكه وهو قائم به، فيجب عليه ترك البحث لأنه إذا كان لا يدرك كيفية أكله وشربه وبوله وألمه وفرحه كيف يخوض في هذا الأمر، وقد نزل العذاب بأئمة من العلماء ليقولوا: « كلام الله مخلوق والقرآن مخلوق » وتحمّلوا العذاب الشديد من أولاد الرشيد زمنا طويلاً من السنين ولم يقولوا هذه الكلمة رضي الله عنهم[1] .

وأما صفة الإدراك فاختلف فيها وهي: في حقه تعالى يدرك بها الملموسات كالنعومة والخشونة، والمشمومات والمذوقات من غير إتصال بمحالّها التي هي الأجسام، وإنما أثبتها بعض أهل الكلام لأنها من كمالاته تعالى، وكل كمال واجب لله تعالى، وإنما نفاها بعضهم للزوم إتصالها بالأجسام.

ولما تعارضت الأقوال فيها توقف عن القول بإثباتها آخرون وهو الأسلم والأصح كما قال صاحب الجوهرة:

فهل له إدراك أولا؟ خُلْفُ وعند قوم صح فيه الوقف

تعلقات الصفات:

ذكر علماء التوحيد تعلقات لهذه الصفات المتقدمة السبعة:

٦٤٥فمنها: مالا يتعلق بأمر أصلاً وهو الحياة والصفة النفسية والصفات السلبية والصفات المعنوية.

---

[1] تفصيل هذه الحوادث في كتابي ((مختصر تاريخ المذاهب الإسلامية في العقائد)) وكتابي ((نفحات منبرية في سيرة أئمة المذاهب الفقهية)) في الحديث عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، نفع الله بهما عباده آمين.

٧٨ومنها: ما يتعلق بالممكنات فقط وهو القدرة والإرادة، لكن تعلق الأولى إيجاد وإعدام، وتعلق الثانية تعلق تخصيص.

٨٨ومنها ما يتعلق بجميع المعلومات أي بالواجبات والمستحيلات والجائزات وهو العلم والكلام، لكن تعلق الأول تعلق انكشاف، وتعلق الثاني تعلق دلالة.

٩٨ومنها: ما يتعلق بالموجودات تعلق انكشاف وهو السمع والبصر.

قال صاحب الجوهرة :

فقـــدرة بممكـــن تعلقـــت بلا تناهـــي مابه تعلقـــــت

ووحدة أوجب لها ومثل ذي إرادة والعلـــم لكن عم ذي

وعم أيضاً واجباً والممتنـــع ومثـل ذا كلامـــــه فلنتبع

وكل موجود أنط للســـمع به كذا البصر إدراكه إن قيل به

الصفات من الرابعة عشرة إلى العشرين

الصفات المعنوية:

يجب له تعالى سبع صفات تسمى الصفات المعنوية نسبة للمعاني لأنها عبارة عن **قيام المعاني بالذات**، وهي ملازمة للسبع السابقة ولذا لازمتها ،فقادر يلازم القدرة، ومريد يلازم الإرادة، وعالم يلازم العلم، وحي يلازم الحياة، وسميع يلازم السمع ،وبصير يلازم البصر، ومتكلم يلازم الكلام، يقول الناظم:

وسبعة قد لازمتها تُدْعى بمعنويةٍ فألقِ السمعا

ككونه حيّاً مريداً قادرا وفي ثبوتها خلاف قد جرى

والحقّ لا استغناء بالمعاني عنها كما حقق بالبرهان

الراجح كما هو عند أهل السنة و الجماعة ملازمةُ هذه الصفات السبعة لسابقتها، وصفات الله تعالى السبعة المعنوية أثبتها أهل السنة والمعتزلة، وإنكارها من أصلها كفر، وتعني أن هذه الصفات قائمة بذاته تعالى غير مكتسبة، وهي: قادر ـ مريد ـ عالم ـ حي ـ سميع ـ بصير ـ متكلم. ومعناها عندهم أن:

١٤- كونه تعالى قادراً يلازم القدرة أي عبارة عن قيام القدرة بذاته تعالى.

١٥- كونه تعالى مريداً يفعل الممكنات كلها باختيار فلا يمنعه ولا يجبره أحد.

١٦- كونه عالماً بكل الأمور فلا يخفى عليه شيء منها.

١٧- كونه حياً أي قيام الحياة بذاته تعالى.

١٨- كونه سميعاً بغير أذن، يسمع كل شيء حتى مالا يسمع كالذوات.

١٩- كونه بصيراً يبصر كل شيء، حتى مالا يبصر كالأصوات، وإن كان لا يُتَصَوَّر ولا يُعقل في حقّ الحوادث.

٢٠- كونه متكلماً دائماً بكلام قديم ليس بحرف ولا صوت.

والدليلِ على كونه تعالى قادراً، وكونه تعالى مريداً، وكونه تعالى عالماً، وحياً، وسميعاً وبصيراً، ومتكلّماً فيُعلم مما مرَّ من دليل القدرة وما بَعْدَها، لأنه لو انتفى كونه قادراً لانتفت القدرة لما بينهما

من التلازم، وإذا انتفت القدرة ثبت ضدها، وهو محال لما تقدم من الدليل. مثل ذلك يقال في الباقي.

المحال في حقه تعالى

يستحيل على الله تعالى أضداد هذه الصفات العشرين وهي:

وضدهـــا عليه يســـتحيل فإنـه المنزه الجليل
بكل أوصاف الكمال قد وُصِفْ طوبى لمن له بهـذا يعـترف

١- العدم: أي الفقدان.

٢- الحدوث: الوجود بعد عدم.

٣- الفناء: طرو العدم أي حصوله بعد إذ لم يكن.

٤- مشابهته تعالى للحوادث، وأنواعها عشرة:

- أن يكون جرماً.
- أن يكون عَرَضاً يقوم بالجرم.
- أن يكون في جهة للجرم، فليس على يمينه ولا عن يساره ولا نحو ذلك.
- أن يكون له جهة فليس فوق ولا تحت ولا نحو ذلك.
- أن يكون في فراغ (مكان).
- أن يكون في زمان.
- أن يكون محلاً للحوادث كالحركة والسكون والسواد والبياض.
- أن يكون متصفاً بالصغر أي قلة الأجزاء.
- أن يكون متصفاً بالكبر أي كثرة الأجزاء.
- أن يكون متصفاً بالأغراض في الأفعال والأحكام، فليس فعله (كإيجاد زيد) ولا حكمه (كإيجاب الصلاة) لغرض (كمصلحة) تبعثه على ذلك، ولا ينافي أنه لحكمة عائدة لخلقه.

٥- قيامه بغيره: أي ذاتٍ يقوم بها أو مكانٍ يحل فيه أو موجدٍ يوجده.

٦- التعدد: في الذات أو الصفات أو الأفعال.

٧- العجز: عن فعل الممكنات، أي ضد القدرة.

٨- الإكراه: بأن يفعل شيئاً بغير اختياره ومعنى الكراهة هنا العقلية لا الشرعية (النهي عن الشي)، لأن الله تعالى قد يوجد الشيء مع كراهته له شرعاً، فالمكروه والمحرم لا يقعان إلا بإرادته سبحانه، وقد حكي أن الأستاذ أبا إسحق الإسفرايني ناقش معتزليا (وهو القاضي عبد الجبار الهمداني)، إذ قال:

سبحان من تنزّه عن الفحشاء. فقال الأستاذ: سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء. فقال عبد الجبار: أفيريد ربنا أن يعصى؟ فقال الأستاذ: أفيعصى ربنا كرها؟ فقال عبد الجبار: أرأيت إن منعني الهدى، وقضى عليَّ بالردى، أحْسَنَ إليَّ أم أساء؟ فقال الأستاذ: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء.

فالذي نعتقده أن الله تعالى فاعل بالإرادة والاختيار، لا بالقهر والإجبار، فلا يجري في ملكه قليل أو كثير، خير أو شر، نفع أو ضرّ. إيمان أو كفر، غنى أو فقر، طاعة أو عصيان، فوز أو خسران، إلا بقضائه وقدره، وحكمته ومشيئته (إرادته).

٩- الجهل: بأمر من الأمور بسيطاً كان الجهل (عدم العلم بالشيء)، أو مركباً (اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه في الواقع) .

١٠- الموت: عدم الحياة.

١١- الصمم: عدم السمع أي غيبة شيء ما من الموجودات عن سمعه تعالى.

١٢- العمى: عدم الإبصار.

١٣- الخرس: أي البَكَمْ: عدم الكلام.

١٤- كونه عاجزاً.

١٥- كونه مكرهاً.

١٦- كونه جاهلاً.

١٧- كونه ميتاً.

١٨- كونه أصمَّ.

١٩- كونه أعمى.

٢٠- كونه أخرس.

تعالى الله عن هذه الأضداد علواً كبيراً.

الجائزات في حقه تعالى:

تقدم أول الكتاب أنه يجب على العبد معرفة:

١- ما يجب لله تعالى وهي عشرون صفة، وقد تقدمت.

٢- وما يستحيل على الله تعالى: وهي عشرون صفة وقد تقدمت.

٣- ما يجوز في حقه تعالى وهو ما سيكون الكلام عليه إن شاء الله تعالى في هذا الفصل.

يقول الناظم:

وجائز عليه فعل الممكن وتركه إن لم يشأ لم يكن.

فيجوز: في حقه تعالى فعل كلِّ ممكن أو تركُه حسب ما يشاء ويختار صلاحاً أو ضدّه.

ومن الجائزات التي عَدَّدَها العلماء: ١- الخـــلق ٢- الرَّزق ٣- الإماتة ٤- الإحياء ٥- الصّحة ٦- الإسقام.

٧- فعل الصلاح والأصلح لوجوب عموم قدرته وإرادته جميع الممكنات، ٨- ويجوز خلق الله تعالى **الرؤية لذاته العلية، والسمع لكلامه القديم** وسيمرُّ في بحث الإيمان باليوم الآخر إن شاء الله تعالى، ٩- ويجوز البعث لرسله الأكرمين، ١٠- والثواب في جنات النعيم، ١١- والهدى والضلالة، ١٢- والإيمان والكفر ١٣- انجاز الوعد والوعيد **ولكن ليس كل جائز واقعاً** وما ذكر من أن بعض الجائزات يقع لا محالة كتنعيم الطائع وتعذيب الكافر فليس لوجوبه بل لإخباره تعالى أنه يقع ولاخُلفَ في خبره، وبعضها لا يقع البتة كالنبوة بعد سيدنا محمدﷺ.

فالجائز عقلاً هو ما يجوّز العقل وجوده وعدمه من غير نظر للشرع، لا يمتنع وجود شيء منه ولا عدمه إلا ما أخبر الشرع بوقوعه فيجب شرعاً لا عقلاً، وما أخبر الشرع بعدم وقوعه فيمتنع لا لذاته بل لإخبار الشرع بذلك قال تعالى: ﴿وربُّك يخلق ما يشاء ويقدر﴾.

ومن الجائز في حقه تعالى إيجاد تأثيره تعالى عند الأسباب العادية، فمن نسب لها التأثير فقد أشرك بالله تعالى فلا تأثير للنار في الحرق، ولا للطعام في الشبع، ولا للسكين في القطع، وهكذا.. فمن اعتقد أن شيئاً منها يؤثر بنفسه فلا نزاع في كفره، ومن اعتقد أن شيئاً منها

يؤثّر بقوة أودعها الله تعالى فيها فهو فاسق[1]. لأن مولانا عز وجل من سنته الأسباب العادية فيخلق عند الأسباب[2]، فيوجد تعالى الاحتراق عند النار، والضوء عند الشمس، والنور عند القمر والمصباح، والجوع عند عدم الأكل، والري عند الشرب، والستر والوقاية عند لبس الثوب، والقطع عند السكين، والشفاء عند التداوي. **ويوجد بها عادة مع صحة التخلف وعدم تأثير أحدهما في الآخر البتة.**

والدليل على أن فعل الممكنات أو تركها جائز في حقه تعالى أنه لو وجب شيء منها عقلاً أو استحال كذلك لانقلب الجائز واجباً لا يصح عدمه ،أو مستحيلاً لا يصح وجوده، وذلك محال لما يلزم عليه من قلب الحقائق وهو مستحيل.

وأيضاً لو وجب عليه فعل شيء لكان مجبوراً مقهوراً مع أنه الفاعل المختار ﷻ ، قال تعالى: ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾. ﴿إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلق جديد﴾. وذهبت المعتزلة إلى وجوب الصلاح والأصلح عليه تعالى، وأحسن مارُدَّ عليهم به في هذه المسألة ما وقع في مناظرة شيخنا الإمام أبي الحسن الأشعري لشيخه الجبّائي، إذ سأله إمامنا[1].

عن ثلاثة إخوة: عاش أحدهم في الطاعة حتى مات كبيراً.

وعاش الثاني في المعصية حتى مات كذلك.

---

[1] تقدم قول ناظم التوحيد:

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عن أهل الملة

ومن يقل بالقوة المودعة فذاك بدعيٌ فلا تلتفت.

[2] انظر تعريف السبب العادي في المعجم أو كتابنا هذا ص /٣٠٤/ فقد عرف علماء التوحيد السبب العادي بأنه: ربط أمر بأمر وجوداً وعدماً مع صحة التخلف من غير أن يؤثر أحدهما في الآخر البتة.

[1] انظر الصاوي على الجوهرة ص ١٥٩ بتعابير أخرى.

والثالث مات صغيراً ؟

فقال الجبائي: يثاب الأول، ويعاقب الثاني، والثالث لا يثاب ولا يعاقب.

فقال له شيخنا: قد يقول الثالث: يا رب هلا أعمرتني فاشتغل بالطاعة حتى أثاب.

فقال الجبائي: يقول الله تعالى له علمت أنك لو عشت لاشتغلت بالمعصية فتعاقب.

فقال الأشعري: قد يقول الثاني يا رب لِمَ لَمْ تمتني صغيراً حتى لا أعصي فلا أعاقب.

فعجز الجبائي وبُهت، وقال: أأنت مجنون يا أبا الحسن ؟

فقال: لا، ولكن وقف حمار الشيخ في العقبة.

قال صاحب الجوهرة:

وقولهم إن الصلاح واجب عليه زور ما عليه واجب

ألم يروا إيلامـــه الأطفالا وشِبْهَهَـــا فحاذر المحالا

وعلى كل حال: **فلا يُنسب لله تعالى ظلم لأنه من صفات المخلوق، إذ الظلم هو التصرف في ملك الغير بغير إذن مالكه، ولا ملك لغير الله تعالى،** ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

التفويض والتأويل في آيات الصفات:

كتاب الله عز وجل مشحون بالتوحيد، وهو الدليل القاطع على وجوده سبحانه وتعالى، ومن لم يكن هُداه من قِبَله تعالى لا تنفعه براهين عقله، لأن العقل لا يستقل بنفسه في الدلالة على الصانع المدبر[1] وإن اتسع فهمه وتعاظم علمه، بل لا بد معه من معونة الله تعالى مع مقارنة اتباع الكتب المنزلة، وإلا ضاع سعيه، وقد ركب متن عمياء، وخَبَط خَبْط عشواء، وهوى في المهاوي المهلكة وهو لا يشعر .

مهمة علماء العقيدة:

١- الجمع بين النصوص:

[1] تقدم أن الما تريدية يقولون باستقلال العقل في الدلالة على وجود الله تعالى.

وإذا ما ورد نصان ظاهرهما تناقض، فلا بدَّ من الجمع بينهما للعمل بهما، ولا يفرَّق بين آيات الله.

وإذا ورد نص متأخر ينسخ المتقدم فيكون العمل بالأخير. لكنَّ النسخ لا يكون في أمر يتعلق بالاعتقاد بل هو خاص بعلم الفروع (الأحكام) كصلاة وصومٍ وحج ونحوهما، وكذا لا يكون النسخ في الخبر إذا كان المقصود منه الإخبار، وأما إذا كان خبرا يراد به أمر أو نهي فيدخله نسخ لأن المراد به الحكم دون الخبر، أما الخبر المحض فلا يتعلق به نسخ لأنه لو نسخ للزم كذب في خبره تعالى وهو محال، فالنسخ يتعلق بالأحكام فقط.

إذن: الأول: يجمع بين النصين، فإذا قرأنا قوله تعالى:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾ و﴿يخافون ربَّهم من فوقهم﴾ و﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ و﴿فإنّي قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ و﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ و﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ و﴿كّلا إنّ معي ربي سيهدين﴾ و﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ و﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم.﴾...

وجب علينا الجمع بين ما ظاهره الجهات، فيحمل ذلك على المجاز لتعذر الحقيقة بالمناقضة. فإن كان العبد واسع القلب، فسيح الصدر، عظيم الذوق والإدراك **يردُّ علم جميع ذلك له تعالى وينزّهه عن المعنى الحسيّ المفهوم من ظاهر الصفة** (وهذا هو التفويض)،كما كان عليه قرن الصحابة ومن تبعهم بإحسان إلى الخمسمئة هجرية، وهذا المذهب الأسلم، والطريق الأقوم.

الثاني: إن كان ليس من فرسان هذا الميدان فليرجع إلى التأويل، وهو **صرف اللفظ عن ظاهره المحال في حقه تعالى الى معنى يليق بذاته وصفاته وأفعاله تعالى**،كما عليه أئمة معتبرون، وهم من جاء بعد القرون الخمسة، لفهم القاصر وتطمينا لقلبه ودفعا لخواطره.

وقد أوّل الخلف الاستواء بالقهر والاستيلاء على العرش وما دونه من الخلق كلّهم، فهو فوق العرش بقهره ورحمانيته وكبريائه وعظمته منزّه عن الاستقرار والجلوس ونحوهما، والرَب ﷻ قال: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

ولم يقل: الله على العرش استوى.

والتأويل استوى برحمانيته على العرش لأنه تعالى يقول: ورحمتي وسعت كل شيء، وهل العرش قديم قبل الحق؟ ! لا طبعا، إذن هو مخلوق، لأن الله تعالى كان موجوداً ولا عرش ولا كرسي.

وقد فهمت اليهود لعنهم الله من مثل هذه الآية في التوراة أن المراد هو الاستقرار الحسي، قالوا: إنه تعالى تعبٍ من خلق السموات والأرض في ستة أيام، فلما فرغ استلقى يومٍ السبت على العرش، فاتخذوه عيداً وراحة، وهذا من شؤم فهمهم، كما فهم مثل فهمهم جماعة من الحنابلة المتأخرين فوقعوا في ورطة التجسيم وحملهم على ذلك أن سيدنا الإمام أحمد يمنع التأويل، فياليتهم حيث قلّدوه في منع التأويل كانوا قلّدوه في وجوب التنزيه لكنهم تبعوه في بعض وخالفوه في بعض، كما قال الشاعر: ((حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء)).

والتأويل مذهب الخلف والمعتزلة، ولا يلزم من كونه مذهب المعتزلة أن يكون ممنوعاً، فإنه جرى عليه كثير من أهل السنة من المذاهب الأربعة، مع أن الأئمة الأربعة كلهم من السلف لا من الخلف، ومذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أحكم.

وقد سئل الإمام مالك رضي الله عنه عن الاستواء فأجاب بقوله:

« الإستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً » .

وسئل إمامنا الشافعي ﷺ فقال:« آمنت بالله واتهمت نفسي »

وسئل الإمام أحمد رضي الله عنه فقال: « الاستواء كما يقول لا كما يخطر في العقول »

فكل منهم أجاب بالتسليم، ومن أين لنا قلوب مثل هذه القلوب المملوءة بالأنوار، متَّعنا الله باتباعهم.

أقسام آيات الصفات:

قَسَّم علماء العقيدة آياتِ الصفات إلى خمسة أقسام:

١- مايوهم الجهة: الفوقية: بمعنى التعالي في العظمة.

العندية: ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ بالإحاطة والتمكن.

القرب: بقرب الرحمة والتصرف في كل شيء بحسبه.

الجانب : بمعنى الحق كقوله تعالى: ﴿**ياحسرتا على مافرطت في جنب الله**﴾

٢- مايوهم الصورة: الصورة: بالصفة من سمع وبصر وعلم وحياة، وإن كانت صفةالله قديمة وصفة العبد حادثة.

ومما يوهم الصورة ما رواه الإمام أحمد والشيخان أن رجلاً ضرب عبده فنهاه النبي ﷺ وقال:

« إن الله تعالى خلق آدم على صورته » وقد قال السلف عن الصورة (صورته): صورة لا نعلمها، و الخلف يقولون: المراد بالصورة: الصفة، من سمع وبصر وعلم وحياة، فهو على صفته في الجملة، وإن كانت صفته تعالى قديمة، وصفة الإنسان حادثة. وهذا كله إذا قيل بأن الضمير عائد على الله سبحانه كما يقتضيه اللفظ، وكما ورد به في بعض الطرق:« إن الله خلق آدم على صورة الرحمن» .

وأما إذا كان الضمير عائداً على الحادث كرواية الإمام مسلم: « فإذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته » أي على صورة الأخ، فهذا غير موهم وواضح، ومعناه خلق آدم على صورة الأخ الذي تريد ضربه فينبغي احترامه باتقاء وجهه. والله أعلم.

٣- مايوهم الجسمية: المعية: معية العلم أو معية الحفظ.

﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾

النزول: نزل أمره، أو ينزل الملك بأمره.

جاء ربك: جاء أمره وتدبيره.

٤- مايوهم الجوارح: اليد: بالقدرة ﴿ لما خلقت بيدي - والذي نفسي بيده ﴾ .

الوجه: بالذات أو بالوجود. ﴿ويبقى وجه ربك﴾

العين: بالحفظ ﴿ولتصنع على عيني﴾ بالتربية والرعاية.

اليمين: بالقوة ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾، ﴿فأخذنا منه باليمن ﴾ .

وقوله ﷺ ﴿إن قلوب بني آدم كلَّها كقلب واحدٍ بين أصبعين من أصابع الرحمن﴾ فتؤول: اليد بالقدرة، والوجه بالذات، والأصابع بالصفات، فمعنى بين أصبعين أي بين صفتين من صفاته تعالى وهما القدرة والإرادة. والله أعلم.

٥- مايوهم الحوادث:

والنصوص التي في معناها حدوث وتغير كالغضب والعجب والمحبة والرحمة والضحك فيؤول كلُّ لفظ من هذه الألفاظ بعاقبته ومآله.

فعاقبة الغضب: الانتقام.

وعاقبة العَجَب: الرضى.

وعاقبة المحبة: الرضى والإثابة.

وعاقبة الرحمة: الإحسان.

وعاقبة الضحك: الرضى.

والعمدة فيها قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ فهذه الآية قاطعة في منع المشابهة والمماثلة لشيء من الأشياء لأن كلمة ﴿شيء﴾ واقع في سياق النفي ﴿ليس﴾ ومعنى ذلك أنها تعم، فلا يبقى شيء، فيكون معنى الآية: ليس كذاته وكصفته وكفعله شيء، لقوله تعالى: ﴿ولله المثل الأعلى﴾.

وكل من يقول: إن الله استقرَّ على العرش فهو مجسَّم كافر.

ورضي الله عن الإمام الغزالي لخص ذلك فقال:

قل لمن يفهم عني ما أقول

قصِّرِ القول فذا شرح يطول

ثَمَّ سرٌّ غامض من دونه

قَصُرتْ والله أعناق الفحول

أنت لا تعرف إياك ولا

تدري من أنت ولا كيف الوصول

أنت لا تدري صفاتٍ ركبتْ فيك

حارت في خفاياها العقول

أين منك الروح في جوهرها

هل تراها فترى كيف تجول

وكذا الأنفاس هل تحصرها

لا ولا تدري متى عنك تزول

أين منك العقل والفهم إذا
غلب النوم فقل لي يا جهول

أنت أكل الخبز لا تعرفه
كيف يجري فيك أم كيف تبول

فإذا كانت طواياك التي
بين جنبيك كذا فيها ضلول

كيف تدري من على العرش استوى

لا تقل كيف استوى كيف النزول

كيف يحكي الرب أم كيف يُرى

فلعمري ليس ذا إلا فضول

فهو لا أين ولا كيف له

وهو رب الكيف والكيف يحول

وهو فوق الفوق لا فوق له[1]

وهو في كلِّ النواحي لا يزول

وقد سُئل ابن عباس رضي الله عنهما عن آيات من كتاب الله تعالى ظاهرها شبه التعارض كقوله تعالى:

﴿فوربك لنسألنَّهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ مع قوله:

---

[1] أي هو منزه عن الفوقية سبحانه. وفوق الفوق: منزه عن الفوق بقرينه (لا فوق له).

﴿ويومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جانّ﴾ و﴿نحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصمّا﴾ مع قوله ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾ وقوله: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ و﴿وإذ يتحاجون في النار﴾ مع قوله ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم﴾ .

وما أشبه ذلك من الآيات، فقال للسائل:

« هوّن عليك فإن القيامة مواقف شتّى » .

ومعناها: أنه بحسب المواقف يكون الجمع بين الآيات ففي موقف يسألون ويتكلمون، وفي موقف آخر يمنعون من ذلك.

وحينئذ فلا تناقض في خبره تعالى إذ الجمع واجب.

ولا يقال: كيف جُوّز التأويل مع قوله تعالى: ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويلَه إلا الله﴾ مع أن السلف كانوا يتعمَّدون الوقف على لفظ الجلالة؟ !

لأن المذموم تَتَبُّعَ المتشابه لقصد إيقاع الناس في الفتنة والرّيب والشك بخلاف من أوّل المتشابه عند الحاجة للتأويل لإصلاح الحال ودفع الشبه عمن لا يقدر على التسليم، فليس ذلك لطلب الفتنة بل لدفعها عن الناس ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ وفي السُّنَّة (إنما الأعمال بالنيات) .

وقد جاء التأويل في أحاديث عدة منها ما روي في الحديث الصحيح الذي كاد أن يبلغ التواتر في قوله ﷺ مرفوعاً إلى ربه عز وجل: « عبدي مرضت فلم تعدني؟ قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: مرض عبدي فلان فلم تعده، أما إنك لو عدته لوجدتني عنده (أي لوجدت ثوابي) .

عبدي استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي » .

لكن السلف كانوا يحبون الوقف عند لفظ الجلالة، كما تقدم أي عند قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا **الله**﴾ قف.

أما من بعدهم فيقفون في القراءة عند قوله تعالى:

﴿والراسخون في العلم﴾.

ثم يبتدئون بقوله تعالى: ﴿يقولون آمنا به كلٌ من عند ربنا﴾ أي أن كلاً من المتشابه والمحكم من عند الله يجب الإيمان به.

وعلى كل حال:

فإن من يُجَوّز تأويل المتشابه عليه أن لا يجزم بأن هذا هو مراد الله تعالى، بل لا يجوز ذلك لأن القرآن الكريم له ظهر وبطن، وإنما هو تقريب للفهم مع جواز غيره. والله أعلم.

الإيمان بالملائكة

يستلزم الإيمان بالله تعالى التصديق والإيمان بكل ما أخبر به، قال تعالى: ﴿ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾ . (النساء: ١٣٦) .

وقد أخبرنا جل وعلا عن عالم الغيب بأمور منها الإيمان بالملائكة،والملائكة عليهم السلام أجسام نورانية، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، قال تعالى: ﴿**أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون**﴾ وقال: ﴿**إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى**﴾ من وصفهم بالذكورة فقد فسق، ومن وصفهم بالأنوثة فقد كفر، أعطاهم الله القدرة على التشكل ولهم القدرة على أعمال يعجز عنها البشر، قوْتهم التسبيح والتمجيد وشأنهم الطاعة، وتجب لهم العصمة.

أما إبليس فكان من الجن ولكن بصفة الملائكة عبادةً ورفْعَ درجة، فصح استثناؤه منهم، وأما هاروت وماروت فمَلَكان لم يصدر منهما صغيرة ولا كبيرة، ولكن عوتبا على نحو ما يعاتب الأنبياء من السهو والزلة يعلمان الناس السحر بأمر من الله تعالى، ويقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر[1]. وكانا في زمن سيدنا إدريس وقيل: زمن سيدنا سليمان بن داود عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وخواص الملائكة جبريل فميكائيل فإسرافيل فملك الموت (وهو عبد الجبار يرفق بالمؤمن ويأتيه في صورة حسنة دون الكافر، وله أعوانه على قبض الروح من الملائكة) وهم رسل الملائكة ثم بقية رؤساء الملائكة كرضوان خازن الجنة وحملة العرش، وهم الملائكة المقربون مع حملة العرش يستغفرون للذين آمنوا .

وخواص الملائكة يلون في الفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ولكل عبد مَلَكان، كل منهما رقيب عتيد، يكتبان أعماله.

وتُكتب السيئة واحدة، والحسنة عشراً، فإذا مات العبد المؤمن قاما على قبره يسبّحان الله تعالى ويكبرانه، ويكتبان ثوابه إلى يوم القيامة، ويلعنان الكافر إلى يوم القيامة، ويكتبان حتى المباح ولا يفارقانه إلا عند الغائط والغسل والجماع، ويجعل الله تعالى لهما علامة على العمل.

ومن الملائكة منكر ونكير، وهما للمؤمن مبشّر وبشير، يسألان العبد في القبر عن ربه وعن دينه، وماذا يقول في هذا الرجل يعني سيدنا النبي ﷺ، فالمؤمن يجيب، والكافر يقول: ها ، فيضرب بمقامع من حديد .

---

[1] فلا تكفر باعتقاد السحر ،وتعلمه وتعليمه حرام

[2] وهي المرتبة الثامنة للأفضلية

ومن الملائكة : الحفظة يحفظون المرء من أمر الله تعالى المعلَّق دون المُبرَم. وقد تقدم رضوان خازن الجنان، ومالك خازن النيران، ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ .

أعمال الملائكة:

وردت الآياتُ والأحاديث تبينّ أعمال الملائكة منها :

١- الذين يحجّون إلى البيت المعمور (سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا) واسمه بيت العزة، واسم رئيسهم سيدنا إسماعيل.

٢- يقول ﷺ: إني أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون، أَطَتِ السماء وحقٍ لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولخرجتم إلى الصَّعُدات تجأرون إلى الله عز وجل.

٣- يقول ﷺ: ألا تصفّون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ قالوا: وكيف يصفّون عند ربهم؟ قال: يكملون الصف الأول ويتراصّون في الصف.

٤- أعظم الملائكة (بقدر جميع المخلوقات) يقال له: الروح في السماء الرابعة، وهو أعظم من السموات والجبال ومن الملائكة

يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة.

وقال ﷺ: أُذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرةُ سبعمئة عام.

٥- وأما عمل رؤساء الملائكة كسيدنا جبريل فموكل على الريح والجنود.

وسيدنا إسرافيل من حملة العرش وهو النافخ في الصور بأمر ربه نفختان وقيل ثلاث : نفخة الفزع ـ نفخة الصعق ـ نفخة البعث، وله الولاية على اللوح المحفوظ.

وسيدنا ميكائيل: موكل على النبات والقطر.

وتقدم عمل ملك الموت (وفي الإسرائيليات أن اسمه عزرائيل): وهو قبض الأنفس.

٦- « فما من قطرة تنزل من السماء إلا ومعها ملك يقررها في موضعها من الأرض » .

٧- ملك الجبال.

٨- سكان السموات السبع: يعمرونها عبادة ذاتية ليلاً ونهاراً.

٩- الموكلون بالجنان بالإضافة إلى سيدنا رضوان خازن الجنة.

١٠- والزبانية التسعة عشر بالإضافة إلى رئيسهم سيدنا مالك خازن النار.

١١- الموكلون بحفظ بني آدم ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾، وهؤلاء غير الموكلين بحفظ أعمال العباد وكتابتها المتقدم ذكرهم. قال صاحب الجوهرة:

بكل عبد حافظـــون وكلوا وكاتبون خـــيرة لن يهمـــــلوا

من أمره شيئاً فعل ولو ذهل حتى الأنين في المرض كما نقل

فحاسب النفس وقَلِّ الأملا فـــرب من جـــد لأمر وصلا

١٢- المتعاقبون بين الليل والنهار. (ق)

١٣- الملائكة على أبواب المساجد يوم الجمعة.

١٤- « إذا أمَّن الإمام فأمّنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » (ق).

« إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا: اللهم ربنا ولك الحمد. فإن من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » (بقية الجماعة إلا ابن ماجه).

١٥- إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع.

١٦- إن لله ملائكة سياحين في الأرض ليبلغوني عن أمتي السلام. (ن - حب - حا)

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله صلاة ترضيك وترضى بها عنا.

عالم الجن:

ذكر مولانا عزل وجل الجن في أكثر من سورة، وسمى سورة بكاملها باسم سورة الجن، وبينت السنة قضاياهم الإيمانية، ووضحت كيف دعاهم رسول الله إلى الإسلام، وقرأ عليهم القرآن وبلغهم شريعة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿**خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار**﴾ وفي الحديث الشريف (م): (خلقت الملائكة من نور وخلقت الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم). وقال تعالى: ﴿**والجان خلقناه من قبل من نار السموم**﴾ أي نار لادخان لها تنفذ في المسام.

والجن أرواح قائمة في أجسام لطيفة نارية قادرة على التشكل بصور مختلفة، يأكلون ويشربون، وفيهم الذكر والأنثى، ويتناكحون ويتناسلون ويموتون، ففي دعاءه عليه الصلاة والسلام (أنت الحي الذي لاتموت والجن والإنس يموتون) .

لايرهم الإنس في الصورة التي خلقهم الله عليها، قال لنا جل وعلا: ﴿**إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم**﴾ ولكن يُرَوْنَ إذا تشكلوا بصور مختلفة من الإنس أو الحيوان، فقد تشكل الشيطان الجني بصورة وأتى إلى سيدنا أبي هريرة في بيت الصدقة يحثو من الطعام (خ)، وكذا مع أبي أيوب الأنصاري وأبي بن كعب (ن) .

ومن الجن العفاريت (جمع عفريت: المارد القوي الداهية)، الأشداء كالذين سخرهم الله لسليمان يعملون بين يديه ويصنعون له مايشاء له من المحاريب والتماثيل، وقال عز من قائل عن عرش بلقيس: ﴿**قال عفريت من الجن: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين**﴾ .

وهم أمة مكلفون بالشرائع الإلهية قال تعالى: ﴿**يامعشر الجن ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا**﴾ . وقد صح أن نفرا من الجن جاؤوا إلى سيدنا رسول الله في بطن نخلة (من جن نصيبين) استمعوا إلى القرآن وهو يقرؤه صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿**وإذ صرفنا إليك نفر من الجن يستمعون القرآن**﴾ . وتكاليفهم هي تكاليف الإنس من حيث الإجمال، وقد يختصون بأحكام فرعية خاصة بجنسهم. ورسلهم هم رسل الإنس لأن الرسالة والنبوة خاصة بالإنس، وقد اتفق العلماء على أنٍ بعثة نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع طبقات الإنس والجن. قال تعالى إخبارا عنهم: ﴿**قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم**﴾ . فهذا يدل على أنهم كانوا قد بلغتهم دعوة موسى، وأنهم يعلمون بكتابه، فكأنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى ثم راحوا يتعبدون شريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولهذا يقول (م): « فضلت على الأنبياء بست. . . وأرسلت إلى الخلق كافة » وفي حديث (بز): « وكان النبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى الإنس والجن » .

أصناف الجن:

أخبر مولانا عز وجل أن من الجن الصالح ومنهم الطالح ومنهم المسلم ومنهم الكافر ومنهم المتبع ومنهم المبتدع كل ذلك مستمد من قوله تعالى: ﴿**وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا . . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون**﴾ أي الجائرون الظالمون بخلاف المقسط فهو العادل.

فالمسلمون منهم يقال لهم الجن المسلمون، أو صلحاء الجن، والكفار يسمَّون شياطين الجن، وأولهم إبليس، قال مولانا عنه: ﴿**كان من الجن ففسق عن أمر ربه**﴾ فهذه الآية صريحة بأنه لم يكن ملكا، لأنه خلق من نار، وله ذرية، بينما الملائكة معصومون من المخالفة والمعصية وأما الشياطين فهم أعداء للإنس ولهم ذرية قال تعالى: ﴿**أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا**﴾. وقال أيضا: ﴿**إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة...**﴾. وقال: ﴿**إن الشيطان ينزغ بينهم**﴾، أي يوقع الشرور ويفسد ذات البين، وفي الحديث(ق) »إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم«. ولهذا أمرنا مولانا أن نلجأ إليه مستجيرين به من همزات الشياطين ﴿**وقل ربي أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون**﴾. وأمرنا نبينا أن نقول عند دخول بيت الخلاء « أعوذ بالله من الخبث والخبائث » ، أي ذكران شياطين الجن وإناثهم، وأن نقرأ عند النوم بآية الكرسي والمعوذات وخواتيم البقرة درءا لمفاسد الشياطين وغيرهم. ومآل شياطين الجن: النار كما صرّحت به الآيات الكثيرة: ﴿**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجنّ والإنس**﴾، ﴿**وأما القاسطون فكانوا لجهنّم حطبا**﴾.

ومآل مؤمنيهم إلى الجنة مستدلين بآية شريفة ﴿**فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولاجان**﴾، فهذا يدل على أن مؤمني الجن في الجنة والله أعلم.

والجن لا نراهم إلا حين التشكل، ومنهم المؤمن والكافر والطائع والعاصي، وقد خلقوا من نار السَّموم (نار لا دخان لها تنفذ في المسام).

جواز التزوج بهم:

ويجوز على المعتمد في المذهب الشافعي نكاح الجن من قبل الانس كما قاله الامام الرملي نقلا عن إفتاء والده، ومنعه آخرون كشيخ الاسلام زكريا الأنصاري والشيخ الخطيب الشربيني مستدلين بقوله تعالى ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها﴾ وأجاب الأولون بأن مولانا امتنّ في هذه الآية على عباده بأعظم الأمرين جواز نكاح الآخر فيجوز للإنسي نكاح الجنية[1].

[1] انظر حاشية الامام الباجوري على شرح ابن قاسم الغزي فصل محرمات النكاح ١٢٤/٢.

الركن الإيماني الثالث

الايمان بالكتب السماوية:

عقيدة الإيمان بالله تعالى لا تنفك عن الإيمان بعناصر التشريع التي منها الإيمان بالكتب السماوية جميعها، وإذا كان الإيمان بالله تعالى يقتضي الإيمان بالرسل فإن الإيمان بالرسل يقتضي الإيمان بكل ما يتلقونه عن الله تعالى.

ووجوب الإيمان بالكتب السماوية نص عليه كتاب الله الخالد يقول الله ﷻ في سورة (النساء ١٣٦) .

﴿يا أيها الذين آمَنُوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أُنزل من قبل، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾ .

والكتاب السماوي هو كل ما أنزله رب العزة على الأنبياء ليبلّغوه للناس كافة، سواء أكانت صحفاً أم ألواحاً أم كتباً، أحكاماً أم أمثلة، وفيها شريعة الله وأحكامه ونظامه وعقائده ومحرَّماته والفضائل ويسير على هديها الناس لتهديهم إلى صراط الله المستقيم. وهو مرجع أهل العلم يستخرجون منه الأحكام الشرعية، ويحفظ الأمة بعد وفاة الرسل من الضلالات والأوهام التي قد تقع فيها إرضاءً لشهواتها، فإذا كان رب العزّة قد قضى على البشر بالموت، والرسل منهم، فإن شرائع الدّين التي دعوا إليها تبقى خالدة مدى الزمان، وتلزم من بعدهم أن يستمسكوا بها ويعتصموا بتعاليمها، وكان الرسل ما يزالون أحياء بينهم ينشرون كتاب الله في أرجاء البسيطة، ولتكون لهم هدىً ونوراً كما قال رب العزة: ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ (مائدة ٤٤) .

فكتاب الله هو الحكم العدل أبد الدهر بين الناس في كل مشاكلهم واختلافاتهم، لأن الحاكم هو الله عز وجل إليه يرجع الأمر كلّه، وقد أنزل على نبيه الكريم﴿ إنِ الحكمُ إلا لله﴾

ولأجل ذلك شرع الله الشرائع منذ أن جعل على هذه الأرض خليفته﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن

أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ (الشورى ١٣) . فيجب على العبد المسلم أن يعتقد أن كلَّ ما نزل من الكتب من عند الله هو حق ثابت لا شك فيه وأن جميع ما في هذه الكتب من القصص والأخبار، والوعد والوعيد، والأوامر والنواهي حق ثابت لا شك فيه، وأن جميع ما في هذه الكتب دال على كلام الله القديم القائم بذاته العلية. وقد ذكرنا في كتابنا القضايا الإيمانية حكم الأخذ بشريعة من قبلنا، وكذا حكم رواية الإسرائيليات، سواء كانت موافقة لشرعنا، أم لا.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: (٤ / ٣٠٠) عند شرح حديث الإسرائيلي الذي خرج يستقرض من رجل في بلدة أخرى على البحر: (ووجه تعلق هذا الحديث بالترجمة ظاهر من جهة أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا لم يرد في شرعنا ماينسخه ولاسيما إذا ذكره صلى الله عليه وسلم معزّزا له أو في سياق الثناء على فاعله أو ماأشبه ذلك) . قال صاحب الجوهرة عن شريعة نبينا:

بعثتُهُ فشرعه لا ينسخ بغيره حتى الزمان ينسخ

ونسخه لشرع غيره وقع حتّماً أذلَّ الله من له منع

الكتب السماوية دعوتها واحدة:

اشتركت الكتب السماوية في عدد من الجوانب منها:

– أصول الدين: العقائد وأسس الإسلام لله تعالى في طاعته وفي عبادته.

– ذُكر في القرآن الكريم كثيراً مما ذكر في الكتب السابقة، قال تعالى﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ .

– بعض الحقائق الدينية في الكتب السابقة وردت في القرآن الكريم.

﴿وإنه لتنزيل ربِّ العالمين • نزل به الروح الأمين • على قلبك لتكون من المنذرين • بلسان عربي مبين• وإنه لفي زبر الأولين﴾ أي صحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام.

– ورد في القرآن الكريم بعض وصايا لقمان لابنه اقتبسها لقمان مما أنزله الله في الكتب الأولى:

﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ﴾ :

﴿يا بني لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم﴾ .

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمُّه وهناً على وهنٍ وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إليَّ المصير﴾ .

﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتَّبَعْ سبيل من أناب إليَّ ثم إليَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ .

﴿يا بُنيَّ إنها إن تك مثقالَ حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيفٌ خبير﴾ .

﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور﴾ .

﴿ولا تُصَعِّر خَدَّك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يجب كلَّ مختال فخور﴾ .

﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ .

- اتفقت الكتب الثلاثة على أمور ثلاثة:

١- الشهادة لسيدنا محمد ﷺ بأنه رسول الله ﷺ .

٢- التنويه بأصحاب سيدنا محمد ﷺ وذكر طائفة من صفاتهم.

٣- الحث على الجهاد في سبيل الله بالبدن والمال.

ومن هنا أوجبت الشريعة الإيمان بالكتب السماوية إجمالاً . كما تقدم . بكل كتاب أنزله الحق عز وجل، والمعروف منها بإيقان ما ذكره القرآن الكريم على التفصيل:

أولها: صحف سيدنا إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وهو أول ما نزل مما ذكره سبحانه في كتابه الكريم.

ثانيها: التوراة: نزل على سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام باللغة العبرية.

ثالثها: الزبور: نزل على سيدنا داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام باللغة العبرية.

رابعها: **الإنجيل**: نزل على سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام باللغة السريانية.

وخاتمها: **القرآن الكريم** الذي نزل على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، باللغة العربية. وهو أفضلها وناسخها.

أما غير ذلك فهي أحاديث لم ترتق إلى درجة العلم القطعية كحديث سيدنا أبي ذر الغفاري: الذي سأل السيد الأعظم ﷺ.

- يا رسول الله كم كتاب أنزل الله تعالى؟

قال: مئة صحيفة وأربعة كتب؛ أنزل الله تعالى على آدم عشر صحائف، وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

ولا شك أن الحروف والأصوات فيها مخلوقة، أما معناها فهو كلام الله القديم.

صحف سيدنا إبراهيم: عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. ورد ذكر هذه الصحف مرتين في كتاب الله عز وجل، في سورة النجم ﴿أم لم ينبّأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفّى﴾. وفي سورة الأعلى ﴿إن هذا لفي الصحف الأولى● صحف إبراهيم وموسى﴾.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر لبعض ما تحتويه هذه الصحف، منها:

- ﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى﴾، ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنَّ سعيه سوف يُرى﴾، ﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾، ﴿وأنَّ إلى ربك المنتهى﴾.

- ﴿قد أفلح من تزكى﴾، ﴿وذكر اسم ربه فصلى﴾، ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾.

كما ورد في السنة المطهرة بعض ما تحتويه هذه الصحف، ذكرها ابن حِبَّان في صحيحه، والحاكم عن أبي ذر رضي الله عنه:

قال: قلت يا رسول الله: ما كانت صحف إبراهيم؟

١- قال: كانت أمثالاً كلها: ﴿ أيها الملك المسلّط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثتك لتردَّ عني دعوة المظلوم فإني لا أردُّها وإن كانت من كافر ﴾

٢- ﴿وعلى العاقل. مالم يكن مغلوباً على عقله. أن يكون له ساعات: فساعة يناجي فيها ربَّه؛ وساعة يحاسب فيها نفسه؛ وساعة يتفكر فيها صنع الله عز وجل؛ وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ﴾.

٣- ﴿وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا لثلاث: تزودٍ لمعاد أو لمعاشٍ أو لذةٍ في غير محرَّم﴾.

٤- ﴿ وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه ﴾.

توراة سيدنا موسى

عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ومعنى التوراة التعليم أو الشريعة. وقد ذكر القرآن الكريم بعضاً عما يحتويه هذا الكتاب، وقد تقدم في صحف سيدنا إبراهيم آيات من سورتي النجم والأعلى.

والتوراة كتاب أحكام الله ﷻ التي كلفها بني إسرائيل، وقد احتكم إلى سيدنا رسول الله ﷺ مرة بعض اليهود في رجل زنى منهم، فحكم عليهم بما في التوراة وهو الرجم.

وفي القرآن الكريم قوله عز وجل بما في التوراة.

﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾

وهذه الأحكام هي مِن شرع مَن قبلنا الذي بقي شرعاً لنا ولم تنسخه شريعتنا المطهرة، وفي التوراة البشارة بسيدنا محمد ﷺ وذكر بعض صفاته (الأعراف ١٥٧).

﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحِلُّ لهم الطيباتِ ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين

آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ .

وفي التوراة صفة أصحاب سيدنا محمد ﷺ:

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة﴾ .

وفي التوراة الحثّ على الجهاد في سبيل الله.

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ .

وفي التوراة العبر والعظات كالتي في صحف سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام المتقدم ذكرها، والذي رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم عن سيدنا أبي ذر: قلت:

يا رسول الله: فما كانت صحف موسى عليه السلام؟

قال: كانت عبراً (عظات) كلها:

﴿عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، عجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها، عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل﴾ .

تحريف التوراة:

تناولت يد التحريف هذا الكتاب في أزمان مختلفة، والدليل على تحريفها أن التوراة المتداولة لدى النصارى تخالف التوراة المتداولة عند اليهود، كما نقله فريد وجدي. وقد أخبر مولانا عن هذا التحريف فقال: ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾، ﴿من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه﴾ .

وقارئ التوراة يرى مالا يليق نسبته إلى الله تعالى وإلى أنبيائه، وهذا باعتراف بعض مصلحي اليهود أنفسهم. والله ﷻ أعلم.

والتوراة ـ اليوم ـ هو أحد أقسام العهد القديم، الذي يقسم إلى ثلاثة أقسام:

التوراة، أسفار الأنبياء الأولين ورسالات الأنبياء الأخيرين ، المكتوبات.

والتوراة ـ اليوم ـ خمسة أسفار نُسِبتْ إلى سيدنا موسى وهي:

١- سِفْر التكوين: وفيه خَلْقُ العالم والإنسان، وقصة سيدنا آدم وحواء، ونوح والطوفان، وحياة سيدنا إبراهيم وإسماعيل وإسحق، وتاريخ سيدنا يعقوب وأولاده.

٢- سِفْر الخروج: يحتوي على نشأة سيدنا موسى في مصر، وتاريخ بني إسرائيل في مصر وتعذيبهم على أيدي الفراعنة ثم خروجهم من مصر، وإنزال الوصايا العشر على موسى مع ذكر بعض التشريعات، وما حدث من بني إسرائيل في غيبة موسى.

٣- سِفْر اللاويين: الأحبار والكهنة وسدنة الهيكل وفيه كثير من التشريعات.

٤- سِفْر العدد: وهو تاريخ بني إسرائيل في التيه في صحراء سيناء، وتقسيم أسباطهم وترتيب منازلهم وذكورهم.

٥- سِفْر التثنية: الاستثناء: وهو بعض الشرائع والوصايا وخطب سيدنا موسى قبل وفاته وكلاماً عن الكهنة والنبوة، وانتخاب يوشع بن نون خلفاً لسيدنا موسى، وينتهي بخبر وفاة سيدنا موسى ودفنه في جبال موآب.

ولا يصح الاعتقاد بهذه التوراة اليوم إلا:

- ما ورد فيها موافقاً القرآن الكريم والسنة النبوية فهو مقبول، وأما ما كذبه القرآن، أو السنة فهو مردود.

- وأما إن سكت القرآن عنه وسكتت عنه السنة، لا تصديقاً ولا تكذيباً، فإننا نسكت عنه فلا نصدق ولا نكذب إلا إذا دلت الوقائع على أحدهما، ففي البخاري قوله ﷺ:

« لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم » . وقد تقدم قول الحافظ ابن حجر عن حكم رواية الإسرائيليات.

وعند الإمام أحمد وابن أبي شيبة والبزار بسند صحيح عن سيدنا جابر أن : سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أتى سيدنا النبي بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه فغضب: وقال:

« لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني » .

وليس من وظيفة هذه العجالة تتبع التحريف الذي حصل في التوراة أو كتب العهد القديم عامة، لأن أرباب المعرفة بالتحريف أنشأوا لها كتباً مستقلة أمثال كتاب رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) أحضر فيه مئة شاهد على التحريف اللفظي والمعنوي في هذا الكتاب وفي قرينه العهد الجديد .

وأبقى القرآن الكريم على أمهات التحريف وكلياته وهو:

– قول طائفة من اليهود (عزيرٌ ابنُ الله) .

– وقول بعض النصارى (المسيح هو ابن الله) أو قول بعضهم الآخر (أن عيسى وأمَّه إلهان من دون الله) .

فإذا سهل عليهم التحريف والكذب في أصول عقيدتهم ففي غيرها أهون وأسهل:

﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ .

زبور سيدنا داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام

أي الكتاب المزبور (المكتوب)، ثم غلب على صحف سيدنا دواد قال عز وجل: ﴿وآتينا داود زبورا﴾ .

وفي القرآن الكريم بعض ما يحتوي الزبور، يقول عز وجل ولم يزل قائلاً عليما:

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ .

قال سيدنا أبو هريرة: الزبور: ما أنزل على داود من بعد الذكر: أي من بعد التوراة.

وورد في تفسير الصاوي على الجلالين في سورة النساء (٢٥٩/١) عند قوله تعالى : ﴿وآتينا داود زبورا﴾ .

(أنه مئةٌ وخمسون سورة ليس فيها حكمٌ ولا حلال ولا حرام بل هو تسبيح وتقديس وتحميد وثناء ومواعظ) . قال ابن كثير في تفسيره: من جملة ما فيه:

﴿من ردَّ لي آبقاً (أعاده إلى طاعته تعالى) سمَّيته جهبذاً، ومن سميته جهبذاً لا أعذبه في النار أبدا ﴾ .

وكان سيدنا داود عليه السلام يخرج إلى البرية فيقوم فيقرأ الزبور، وتقوم علماء بني إسرائيل خلفه ويقوم الناس خلف العلماء، وتقوم الجن خلف الناس، والشياطين خلف الجن، وتجيء الدواب التي في الجبال فيقمن بين يديه، وترفرف الطيور على رؤوس الناس وهم يستمعون لقراءة داود ويتعجبون منها، لأن الله أعطاه صوتا حسنا .

وقد ورد بأن سيدنا أبا موسى الأشعري رضي الله عنه كان يقرأ القرآن ليلاً بصوت حسن، فلما أصبح قال سيدنا رسول الله ﷺ :

– قد أعجبتني قراءتك، كأنك أعطيت مزماراً من مزامير داود .

فقال أبو موسى: لو علمت بك لحبّرته لك تحبيراً .

ولسنا نعتقد أن الزبور الذي بين أيدي اليهود ـ في العهد القديم في قسم المكتوبات ـ هو نفسه زبور سيدنا داود لأنه ليس لها سند صحيح النسبة إليه، ولكننا نجزم ونعتقد أن زبوراً أنزله الله على سيدنا داود هو أعلم به سبحانه.

إنجيل سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام

الإنجيل معناه بالعربية: البشرى، وهو كتاب أنزله الله على سيدنا عيسى، وهو مفقود منذ عهد أتباع سيدنا عيسى، وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض ما في هذا الكتاب بشكل قطعي يقيني.

أولها: في سورة المائدة (٤٦) قوله تعالى:

﴿وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور، ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدىً وموعظةٌ للمتقين﴾ .

فهذه الآية تبين أن ما أنزله الله على سيدنا عيسى هو: الهدى والنور والتصديق بالتوراة، والموعظة للمتقين.

ثانيها: التي تلي السابقة، وهي قوله تعالى:

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ .

وهذا دليل على أن في الإنجيل أحكاماً وتشريعاً ربانياً .

ثالثها: تغيير بعض الأحكام التي كانت في التوراة، يقول تعالى في سورة آل عمران على لسان سيدنا عيسى:

﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة،µ لأحل لكم بعض الذي حُرّم عليكم، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون، إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ .

رابعها: البشارة بسيدنا محمد ﷺ، وذِكْر بعض صفاته، كما تقدم ذكرها في الحديث عن التوراة.

﴿والذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ .

خامسها: ذكر بعض صفات أصحاب السيد الأعظم صلوات الله وسلاماته عليه، كما في سورة الفتح:

﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار﴾ .

أي أن مثل أصحاب سيدنا رسول الله وهم حوله ﷺ كزرع يبدأ صغيراً، فتظهر فروخه من حوله فتحميه فيشتد الزرع ويستغلظ، فيعقب استواء الزرع على سوقه، يرى فيه الزرّاع عجباً عجاباً لسرعة نموه وشدة قوته. وهكذا كان أصحاب سيدنا محمدﷺ من حوله، انتشر سلطانهم، وامتدَّ ظلهم بسرعة ملأت قلوب الباحثين في التاريخ الإنساني عجباً .

سادسها: ذكر الحث على الجهاد في سبيل الله بالأنفس والأموال:

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتَلون. وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ .

وهذا على خلاف الشائع من أن الديانة النصرانية لا تدعو إلى جهاد في سبيل الله تعالى.

فبهذه الآيات نؤمن جازمين أنها في الإنجيل المنزل على سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام.

وأما إنجيل اليوم فيسمى عند النصارى: بالعهد الجديد . وهو قسمان:

الأسفار التاريخية ـ الأسفار التعليمية:

والأسفار التاريخية تشمل أربعة أناجيل ـ معترف بها لدى الكنيسة ـ كما تتضمن رسالة أعمال الرسل، والأناجيل الأربعة كلها إخبار عن سيدنا يحيى (يوحنا المعمدان) .

وكل هذه الأناجيل كتبت بعد رفع سيدنا عيسى إلى السماء وليس فيها شيءٌ من إملاء السيد المسيح بشهادة المؤرخين عندهم والنقاد الغربيين. وليس هو بالإنجيل الرباني الذي أنزله الله تعالى على سيدنا عيسى. ومما يذكر أن أول من أدخل على هذه الأناجيل فكرة أن المسيح ابن الله ـ والعياذ بالله ـ هو بولس الأستاذ الحبيب لأحد هذه الأناجيل الأربعة يدعى إنجيل لوقا، (ولوقا هو أحد الحواريين) .

لكن إنجيلاً خامساً لا تعترف به الكنيسة هو (إنجيل برنابا)[1] القديس الحجة عندهم باتفاق، وفي هذا الإنجيل أن برنابا هو أحد الحواريين الاثني عشر حول سيدنا عيسى، وقد تضمن هذا الإنجيل قصة حياة المسيح بتعبير مشرق، ودقة بارعة، وحكمة واسعة، وخالف الأناجيل الأربعة السابقة بما يلي:

١- يثبت أن سيدنا عيسى عبد الله ورسوله، وينكر ألوهيته وكونَهُ ابن الله ! !

٢- يثبت أن الذبيح من ولدي سيدنا إبراهيم هو سيدنا إسماعيل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

٣- يبشر برسالة سيدنا محمد ﷺ بالاسم الصريح، وفيه تصديق ما جاء به القرآن الكريم بذلك.

٤- يثبت أن المسيح عيسى لم يصلب بل رفع إلى السماء، وأن الذي صلب إنما هو يهوذا الأسخروطي الخائن الذي وقع شبه سيدنا عيسى ﷺ عليه .

٥- يثبت كثيراً من الأصول الاعتقادية المتفقة مع أصول الشرائع الربانية المدرجة في القرآن الكريم.

وتقدم أن رحمة الله الهندي في كتابه ـ إظهار الحق ـ قد تناول التحريف في هذه الأناجيل فلا لزوم لتكرارها، والله عز وجل أعلم.

---

١ وجد على رأس هذا القرن العشرين وجده راع في حفرة وعرض له فيلم ساعتين في أمريكا

القرآن الكريم

المنزل

على سيدنا محمد

خاتم الأنبياء والمرسلين

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه الكرام.

القرآن اسم علم غير مشتق خاصِ بكلام الله تعالى ، ويرى جماعة أنه مشتق من القراءة أو من القرء أو من القرائن.

فعلى الأول: لتكرر القراءة والقرآن، وكل شيء جمعتُه فقد قرأتُه.

وعلى الثاني: بمعنى الجمع، وفيه قرأت الماء في الحوض: أي جمعته.

وعلى الثالث: لأن الآيات يصدق بعضها بعضاً، وقرنت الشيء بالشيء إذا ضممت بعضه إلى بعض.

ثم أصبحت لفظة القرآن اسم علم على الكتاب الموحى به من الله، والمنزل على نبيه سيدنا محمد ﷺ وهذا الاستعمال الأغلب: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾

وعرفه أهل الاصطلاح فقالوا:

هو الكلام العربي المنزل من الله تعالى على سيدنا النبي محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته.

أسماؤه: ذكر له أسماء كثيرة: أنهاها بعضهم إلى نيف وتسعين اسماً، وجعلها بعضهم خمسة وخمسين اسماً، وأكثر ما ورد يعد من الصفات من ذلك: الهادي والقيم، ومنها:

الكتاب: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ .

الفرقان: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ .

وأكثرها دورانا لفظ القرآن، فقد جاء في نحو من سبعين آية، وكان في كلها صريحاً في اسميته ومدلوله الخاص، من أجل ذلك كتب لهذه اللفظة الغلبة على غيرها .

مصدر القرآن:

يثبت مصدر القرآن من ناحيتين:

الأولى: ظاهرة الوحي.

الثانية: حياة سيدنا النبي ﷺ كدليل على ذلك المصدر، وأن الدور الأساسي للنبي عليه الصلاة والسلام في القرآن هو: نقل ما أوحي إليه وتبليغه.

ظاهرة الوحي:

تمثل هذه الظاهرة مبدأ اتصال عالم الغيب بعالم الشهادة، كما يمثل الوحي مصدر المعرفة الإنسانية على عالم الغيب، في حين يشكل العقل والحواس مصدر هذه المعرفة عن عالم الشهادة.

والإيمان بعالم الغيب ليس خارجاً عن نطاق القدرة العقلية، بل بوسعه أن يستدل بعالم الشهادة عن عالم الغيب، ولا يكون العقل بذلك قد سلم بسرّ باطل، أو عقيدة مستحيلة.

وليس ببعيد عنا قانون العلّية: الذي يملي فيه العقل البحث عن المؤثر عند حدوث الأثر، وعن الصانع عند رؤية المصنوع. (قانون السببية)، وهذا وقع ضمن القدرة العقلية، لأن عالم الحس كما يشمل محسوسات جزئية فإنه يشمل المحسوس العام الأعظم.

ولكن كل ما في الأمر أن العقل يعجز عن اقتحام ساحة هذا العلم أو معرفة كنهه بوسائل عالم الشهادة . العقل والحواس ـ وهنا يأتي دور الوحي الذي يعرّف بحقيقة هذا العالم ويوقفه على حقيقة الصفات الإلهية، ويرسم له طريق الحياة الأمثل.

ولا غرابة في عدم معرفة العقل البشري لأشياء مبهمة لا يقوى على معرفتها، فلقد أعده الله تعالى لكي يفهم ظواهر الأشياء، ولا يعدوها لما خفي من أسرارها .

وأصل الوحي لغة: الإشارة السريعة:

ولهذا قيل: إنه الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره. ويدخل تحت هذا التعريف:

– الإلهام الغريزي: كالوحي إلى النحل ﴿أن اتخذي من الجبال بيوتاً، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شرابٌ مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾

– إلهام الخواطر: بما يلقيه الله عز وجل في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح، كالوحي إلى أم موسى ﴿أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ .

وسوسة الشياطين: ﴿إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ .

وقد روعي في وحي الله تعالى لأنبيائه المعنيان الأوليان: الخفاء والسرعة، ولذلك عرفه أهل الإصطلاح بأنه:

(تكليم الله سبحانه لأحد من عباده بطريقة من طرق الوحي) .

صورة الوحي: هي كما قال رب العزة جل وعلا:

﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم﴾ .

صور الوحي

١- إلقاء المعنى في القلب، وربما كانت عن طريق الملك من غير أن يراه أو بدونه، وقد قال عليه الصلاة والسلام: « **إن روح القدس نفث في رُوْعي (أي في نفسي وخلدي وبالي) أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب** » .

٢- الكلام من وراء حجاب: كما كلم ربُّ العزة سيدَنا موسى عندما أتى إلى الشجرة (الحجاب) ﴿فلما أتاها نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾ .

٣- تكليم النبي بوساطة جبريل عليه السلام ، يهبط على نبينا بأسلوبين (هيئتين):

الأول: يأتيه مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليه.

الثاني: أن يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه فيعي عنه ما يقول:

أخرج البخاري فيما روته السيدة عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل سيدنا رسول الله ﷺ:

- كيف يأتيك الوحي؟

فقال رسول الله: أحياناً يأتي مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال: وأحيانا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول.

تقول السيدة عائشة: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصَّد عرقا .

وقد تم الوحي بالقرآن الكريم بلفظه ومعناه جميعاً، ينزل عليه حتى إن ناقته تبرك به إلى الأرض، إذا كان راكبها، وقد جاءه مرة الوحي وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها، قال تعالى: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ .

وربما سمع الحاضرون دوياً كدوي النحل، لكنهم لا يفهمون كلاماً أو حديثاً.

ومن ادعى أن النبي بحالات الوحي التي وصفها أنها حالات مَرَضية (كقول بعضهم إنه يأتيه الصرع: وهو علة عصبية مزمنة تتميز بنوبات غيبوبة أو تشنجات أو كليهما، ويصاحبها في الأدوار الأخيرة اضطراب عقلي) من قال ذلك فهو كافر، ثم أعجب أن يصدر عن مثل تلك النوبات مثل هذا الكلام المعجز على مدى الدهور، بل يستحيل على البشر ـ كل البشر ـ أن يأتوا بسورة من مثله، بل إنه لا يقبل هذا الكلام أي جملة مقحمة أو كلمة غريبة، كما يدرك ذلك المثقفون وعامة الناس على حد سواء.

بدء الوحي:

روى البخاري عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها عن الوحي كيف بدأ برسول الله ﷺ، وعن أيامه الأولى فقال:

« أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب الله إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث (يتعبد) فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى السيدة خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم﴾ » .

وقوله الرؤيا الصالحة لأنها احدى صور الوحي بالنسبة للأنبياء، كقول الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لابنه سيدنا إسماعيل: ﴿يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر﴾.

تتمة الحديث السابق: « فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على السيدة خديجة بنت خويلد فقال: زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر وقال: لقد خشيت على نفسي. فقالت السيدة خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف،وتعين على نوائب الدهر. . . » .

« ثم أعلم ورقة بن نوفل فقال: إنه الناموس الذي نَزَّل الله على موسى، وذكر له أن قومه مخرجوه. فقال: أمخرجيٍ هم؟ٍ قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرْك نصرا مؤزرا » .

نزول القرآن الكريم:٢

اختيرت كلمة (نزولٍ) منٍ أجل التنويه بشرف هذا الكتاب نظراً لما توحيه هذه المادة من علوّ مُنزّلِ هذا الكتاب علواً كبيراً وبهذا جاء التعبير القرآني:

﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ و﴿نزّلناه تنزيلاً﴾ .

وقد نزل أولاً إلى اللوح المحفوظ وتنزل إليه جملة لا مفرقاً .

والتنزيل الثاني: إلى سماء الدنيا، إلى بيت العزة، قال تعالى: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ و﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ .

والتنزيل الثالث: نزل على سيدنا النبي ﷺ مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة كما هو معلوم، فكانت السورة تنزل مرة، وتنزل الآية أو الآيات مرة أخرى، فيقول الرسول ﷺ: ضعوا هذه الآية في موضع كذا من سورة كذا .

وهذا معنى قولهم إن نزول القرآن وترتيبه كان توقيفياً .

وكان أول ما نزل وآخر ما نزل: تقدم أن أول ما نزل من الآيات أوائل سورة العلق، وكان أول ما نزل من السور سورة الفاتحة.

وكان آخر ما نزل من السور سورة المائدة، وآخر ما نزل من الآيات قوله تعالى:

﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ . توفي بعده رسول الله ﷺ بتسع ليال.

وكان النزول على قسمين:

الأول: ما نزل دون حصول مناسبة تستدعي بيان حكم فيها، كنزول كثير من الآيات المتضمنة قصص الأنبياء وأحوال الآخرة وقدرة الله، وآيات أخرى تتعلق ببناء المجتمع وتقويته وبيان أحكامه النافذة، وآيات المواريث، وغيرها .

الثاني: ما نزل إثر وقوع حادثة لم يعرف فيها حكم الله، أو سؤال وجه إلى نبي الله فكانت الآيات تنزل مبينة الحكم أو جواب السؤال. ومثاله الحوادث الكثيرة والأسئلة التي وجهت لرسولِ الله والموجودة في القرآن بلفظ: سألٍ ـ يسألك ـ ومناسبات النزول سمّاها العلماء اصطلاحا (أسباب النزول) ومعرفتها تلقي ضوءاً على تفسير الآيات، ولكن ينبغي الانتباه إلى أنه وإن نزلت هذه الآيات بناء على حادثة فإن حكمها لا يقتصر عليها بل يتعداها إلى كل الحوادث المشابهة، ولذلك جاءت القاعدة المشهورة:

(العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

والحكمة من نزول القرآن (مُنَجّماً) أي مفرّقاً أمور كثيرة منها:

١- تثبيت فؤادِه عليه الصلاة والسلام، والرد على مزاعم المشركين ودسائسهم، فتجديد الوحي يوماً بعد يوم، وحالاً بعد حال، يمثل لوناً من ألوان الرعاية الإلهية التي تمده بأسباب الثبات، قال تعالى:

﴿**وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا**﴾ وما هذا إلا اعتناءٍ وكبير شرف لرسولِ الله صلواتِ الله وسلامه عليه حيث كان يأتيه الوحي من الله ﷻ بالقرآن صباحاً ومساءً، وليلاً ونهاراً، وسفراً وحضراً.

٢- ومن الحِكَم تصويرُ مجتمعات المنافقين والمشركين وفضح أساليبهم ﴿**يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورةٌ تنبِّئهم بما في قلوبهم**﴾.

٣- التلطف بالنبي والتخفيف عنه مما يلقاه من الشدة حين نزول الوحي مع أنه لا يدوم إلا قليلاً.

٤- رسوخ الأحكام في الأذهان والدقة في فهمها.

٥- تقديم الحلول للمشكلات الطارئة في وقتها المناسب

٦- تسهيل حفظه على رسول الله والمؤمنين لأن العرب في الأغلب أمة أمية.

٧- ومن أهم الحكم تربية الأمة الناشئة وإعدادها لبنة لبنة، وآية آية، وإنها لأعجب ظاهرة في التاريخ أن تولد هذه الأمة من خلال تلك النصوص، فلنذكر أن ذلك لم يتمَّ في يوم وليلة يرسم للإنسانية على الدوام الصورة المثلى للبناء في الوقت الحاضر والمستقبل على حدٍّ سواء.

والتربية تحتاج إلى زمن، فالنفسِ البشرِية لا تتحول تحولاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب شامل كامل للمنهج الجديد، بل تتأثر رويدا رويدا تتدرج فيه رقيا .

وكانت التربية عملية لا نظرية، فكلما حدث حادث نزلت الآيات تؤيد أو تنفي أو تجيب قال تعالى: ﴿ **ويسألونك ماذا ينفقون. قل العفو** ﴾ و﴿ **يسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ .

ولعل ما يشير إلى هذه الحكمة قول الله تعالى:

﴿ **وقرأنا ً فرَّقناه لتقرأه على الناس على مُكث ونزَّلناه تنزيلا** ﴾ .

كما أن التدرج في التشريع مَجْلَبَةٌ لتمكن الأفراد في المجتمع واجتثاث شروره ومفاسده ومن أمثلته تحريم الخمر بالتدريج، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها فيما رواه البخاري:

« إنما نزل أول سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثابِ الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدا » .

٨- ثم الدلالة على إعجازه وإثبات مصدره: خاصة إذا نظر إلى هذا الاتساق المعجز ،منسَّق الآيات والسور ،محكم السرد، دقيق السبك، قوي الأسلوب، إنه دليل تنزيله من حكيم حميد يقول تعالى، ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾ .

جمع القرآن وتدوينه:

إذا كان حفظ القرآن ـ بمعنى جمعه في الصدور ـ وكتابته على الأوراق المختلفة المتفرقة، قد تمَّ في عهد سيدنا النبي ﷺ، فإن جمعه ـ بمعنى جمع الأوراق المكتوبة في مصحف واحد ـ قد تم في عهد الخليفة الصديق ﷺ ، وثم (نُسِخَ) من هذا المصحف عدة نسخ بعث بها إلى الأمصار، زمن سيدنا عثمان رضي الله عنه.

أولاً: الحفظ والجمع في الصدور:

كان سيد الحفاظ وأولهم سيدنا رسول الله ﷺ الذي (فرّق) الله عليه القرآن ليقرأه على الناس ﴿ **على مُكْث** ﴾ والذي تكفل له بحفظه وجمعه في صدره : يقول تعالى.

﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به إنّ علينا جمعه وقرآنه** ﴾ .

وكانت سبيل الحفظ ممهدة أمام سيدنا نبي الله ﷺ والصحابة معتمدين على الذاكرة دون الكتابة بوصفهم أمة أمية لهم كل خصائص الفطرة النقية والذكاء الأصيل وساعد على ذلك قوة العنصر الفكري عندهم نتيجة لحياتهم الصافية البسيطة وذاكرتهم القوية، ومما ساعد أيضاً على الحفظ زيادة العنصر الروحي والإيماني إذ كانوا شديدي الحب لرسول الله ﷺ وللدين الجديد مما جعلهم في شوق دائم إلى كلام الله تعالى ليزيحوا عن قلوبهم حجب الظلام، بل ساعد على ذلك أيضا نزول القرآن مفرقا وقراءته في الصلوات الجهرية وخطب الجمع، بل وَتَمَهُّل رسول الله في التلاوة وقراءته قراءة مفسرة ولو عدّه العادُّ لأحصاه. قال تعالى: ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾ .

والذي يزيد حفظ السيد الأعظم وتثبيته عليه الصلاة والسلام نزول سيدنا جبريل في كل عام مرة في شهر رمضان يراجعان القرآن، حتى إذا قَرُبَ أجل النبي ﷺ عارض سيدنا جبريل بالقرآن مرتين، ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها عن السيدة فاطمة بنت سيدنا النبي ﷺ قولها « أسرَّ إليّ النبي ﷺ أن جبريل يعارضني بالقرآن كل سنة، وأنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضور أجلي»

أما دور الصحابة ﷺ فقد كانوا يتسابقون في حفظ القرآن، واستظهاره يهجرون من أجل تلاوته في الأسحار نومهم وراحتهم حتى ليمر الشخص ببيوت الصحابة في غسق الدجى، يسمع فيه دويًا كدويّ النحل بالقرآن، قال رسول الله ﷺ فيما يرويه الشيخان عن أبي موسى الأشعري قال: « **إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن، حين يدخلون بالليل وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أرَ منازلهم حين نزلوا بالنهار** » .

فهذا حث من النبي الكريم ﷺ للصحابة على العناية بالتنزيل، وهو يبعث إلى من كان منهم بعيدا من يقرئهم ويعلمهم كما بعث مصعب بن عمير وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل الهجرة، وكما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد الهجرة.

قال عبادة بن الصامت ﷺ : « كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن حتى أمرهم رسول الله أن يخفضوا أصواتهم لئلا يتغالطوا » .

وكان الصحابة ﷺ يتعاهدون تلاوة القرآن في جميع أوقاتهم فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله ﷺ: « **إقرأ القرآن في كل شهر، قال عبد الله: قلت: إني أجد قوة. قال: فاقرأه في عشرين ليلة. قال: قلت: إني أجد قوة. قال: فاقرأه في سبع لا تزد على ذلك** » .

وكان عدد الحفاظ كبيراً جداً، ويكفي أنه قتل منهم يوم اليمامة ويوم بئر معونه أربعون ومئة، وأشهر الحفاظ من الصحابة:

الخلفاء الأربعة، وطلحة وسعد وحذيفة وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وعمرو بن العاص وابن الزبير ومعاوية والسيدتان عائشة وحفصة رضي الله عنهم جميعا .

وحفظه في عهد النبي من الأنصار سيدنا معاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو الدرداء، وأنس بن مالك وغيرهم رضي الله عنهم.

ثانياً: الكتابة والتدوين

اتخذ سيدنا النبي ﷺ كُتَّاباً للوحي، أمرهم بكتابة كل ما ينزل من القرآن حتى بلغ عددهم تسعةً وعشرين كاتباً منهم الخلفاء الأربعة وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، والزبير بن العوام، وسعيد بن العاص، وعمرو بن العاص، وثابت بن قيس، ومعاوية بن أبي سفيان، إلا أن زديدا ومعاوية كانا أكثر التصاقاً بهذه المهمة الخطيرة. فكانوا يكتبون على جريد النخل يكتبونه في الطرف العريض وعلى الحجر الأبيض الرقيق وعلى الرقاع (جلد أو ورق أو كاغد) أو على عظم الشاة أو البعير بعد أن يجف، أو على الخشب، وكانوا لا يكتبون شيئاً غير القرآن لأن السيد الأعظم نهاهم عن أن يكتبوا شيئاً غير القرآن فقال: « **لا تكتبوا عني شيئاً غير القرآن، ومن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه** » .

١- جمع القرآن في عهد الصدّيق أبي بكر رضي الله عنه.

يحدثنا عن ذلك سيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه كاتب الوحي على عهد الرسول الله ﷺ فيما يرويه البخاري فيقول:

أرسل إلي أبو بكر مقتل (بعد مقتل) أهل اليمامة فإذا عمر بن الخطاب عنده: فقال أبو بكر رضي الله عنه.

– إن عمر قد أتاني فقال: إن القتل قد استحرَّ يوم اليمامة بقرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن.

قلت لعمر: كيف نفعل مالم يفعله رسول الله ﷺ.

قال عمر: هذه والله خير.

فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر.

قال زيد: (قال أبو بكر: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه). فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن... فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللحاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيم الأنصاري لم أجدها مع غيره: ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم...** ﴾ حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصه بنت عمر رضي الله عنهم » .

هذا الحديث:

١- يدل هذا الحديث الصحيح على أن الباعث على الجمع الذي تم في عهد الصديق كان بإشارة من ابن الخطاب رضي الله عنهما، وهو الخوف من أن يذهب كثير من القرآن.

فقال: قدم عمر فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً فليأت به، قال راوي الحديث:

- وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعسب، وكان زيد لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان. قال السخاوي: المراد أنهما يشهدان على أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

٢- يتلخص منهج الجمع كما رسم لزيد وأمر بتنفيذه في وجوب الاعتماد على مصدرين:

أولهما: ما كتب بين يدي النبي ﷺ.

ثانيهما: ما كان محفوظاً في صدور الرجال رضي الله عنهم .

يساعده في ذلك الحافظ سيدنا عمر بن الخطاب، وذلك في قول أبي بكر لهما: اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه.

وكان تتبعهما للرجال للاستظهار لا لاستحداث العلم.

وكل ذلك كي لا يرتاب أحد فيما يودع المصحف، ولا يشكُّوا في أنه جمع على ملأٍ منهم.

هذا الجمع العلني والإعلامي في مجتمع فضل وعلم ودين، هذا الذي قال فيه سيدنا علي بن أبي طالب: « أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله »

٣- إن دفع المصحف إلى السيدة حفصة بعد وفاة سيدنا عمر كان له مغزى، إذا أن الخلافة تركها سيدنا عمر شورى بين ستة فلا يحسن دفع المصحف إلى واحد منهم وإلاّ كان من علامات الترجيح، يضاف إلى ذلك أن السيدة حفصة رضوان الله عليها هي زوجة النبيﷺ وأم المؤمنين، وكانت متمكنة من القراءة والكتابة فضلاً عن حفظها للقرآن الكريم عن ظهر قلب.

نسخ المصاحف على عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه:

بعد أن قام الصدّيق ﷺ بعملية جمع القرآن جمعاً عاماً، أو جمعاً « رسمياً » وشارك فيه جمهور الصحابة الفقهاء أو جماعة المسلمين ، الحافظ بحفظه، والكاتب بكتابته. بعد هذا الجمع تلته عملية ثانية، إذ أن تعدد المصاحف بجوار مصحف الصّدّيق أبي بكر الموجودة مع الصحابة وانتشار القراء في الأمصار تسبب في تعدد القراءات واختلاف القرّاء، حيث نزل القرآن على سبعة أحرف ميسراً وفق لهجات عربية، فكان النبي يقرئ الرجل القرآن باللهجة التي يسهل عليه أداء القرآن بها، وعلى أن هذه القراءات وحي من الله تعالى، وتناقل الصحابة هذا العلم الزاخر كما تعلموه من رسول الله، فتعددت القراءات واختلف القراء، كل يقرأ بقراءة.

وجاء عهد الخليفة الشهيد عثمان ﷺ فقام بعملية أخيرة فيما يرويه البخاري:

« عن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان:

- يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

فأرسل سيدنا عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال سيدنا عثمان للرهط القرشيين الثلاثة:

– إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل في كل أُفق بمصحف مما نسخوا. وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق » .

وقد استهدف سيدنا عثمان من عمله في نشر القرآن وتعميمه أمرين أساسيين:

الأول: منع التماري في القرآن والاختلاف بين المسلمين بشأن القراءات المختلفة لأن المصاحف العثمانية أضفت الصفة الشرعية على القراءات المختلفة التي كانت تدخل في إطار النص المدوّن، ولها أصل نبوي مجمع عليه.

الثاني: حماية النص القرآني ذاته من أي تحريف.

مزايا المصاحف العثمانية:

ومما سبق يتبين قاعدة الخليفة الراشدي الثالث سيدنا عثمان في الجمع ومزايا المصاحف العثمانية:

آ– كتابة القرآن بلغة قريش لأنه نزل بلسانهم.

ب – جردت المصاحف من كل ما ليس قرآناً، كالشروح والتفاسير التي كان بعض الصحابة يدونونها في مصاحفهم مثل قوله تعالى:

﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم** ﴾ (في موسم الحج) . .

ج – كانت هذه المصاحف خالية من النقط والشكل مما فسح المجال لقراءة القرآن بأي من الحروف السبعة التي نزل عليها، وبذلك لم يسقط سيدنا عثمان من القراءات شيئاً، وكان ﷺ يقول:

« **فأي ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا** » .

ثم تصدى لهذه القراءات جهابذة العلماء فنقلوها ونقحوها وميزوا صحيحها من فاسدها فانتشرت على أيديهم القراءات السبع المتواترة وسميت بين الناس بأسماء ناشريها فقيل: قراءة عاصم، قراءة نافع. . مع أن الأساس والأصل وحي من الله تعالى إلى رسوله الكريم. وقيّضَ الله للمصحف أهل اللغة فقام بمحاولة تشكيله أبو الأسود الدؤلي، ثم قام تلميذه عاصم بن نصر بتنقيطه.

الرسم العثماني (رسم المصحف):

يراد به رسم القرآن بالطريقة التي تمت على عهد الخليفة الراشدي وأمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان ﷺ وهي الطريقة التي اتبعتها اللجنة الرباعية المتقدمة التي وكل إليها أَمْرُ استنساخ المصاحف، وكانت سبعة مصاحف على الأرجح.

وقد بقي هذا الرسم العثماني سنة متبعة إلى يوم الناس هذا، لا يغير ولا يبدل، وإلى ذلك ذهب علماء المسلمين على مدى العصور، فكرهوا أو حرّموا تغييره تبعا لتغير رسوم الهجاء باختلاف الزمان والمكان، وزيادة في الحيطة والخشية والحذر من أي تغيير يعود أو يصيب النص القرآني ولو في ناحية شكلية محضة.

سئل الإمام مالك ﷺ : هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟

فقال: لا، إلا على الكتبة الأولى.

أما صور اختلاف الرسم العثماني عن الرسم الإملائي فكثيرة ذكرها ابن قتيبة، من أشهرها:

١- حذف ألف التثنية: قال ((رجلين)): رجلان.

٢- كتابة الصلاة والزكاة والحياة بالواو: الصلوة، الزكوة، الحيوة.

٣- كتابه الربا بالواو: الربو.

ولا تخلو لغة من اللغات اليوم من حروف تكتب ولا تلفظ أو من حروف تكتب على وجه وتلفظ على وجه آخر.

والقرآن عمادة اللغة العربية وكتابها، والأمر في لغته : التعليم، وفي القرآن الكريم نفس المشافهة والتلقي .

فيجب اتباع ذلك الرسم عند كتابة المصاحف. وأما إذا كتب بعض من آياته في خلال بحث أو كتاب (غير المصحف) فيجوز كتابته مع مراعاة الرسم الإملائي تعليما للقراء وتثبيتا للمعاني الإعرابية الواجب اتباعها.

علوم القرآن:

تدور علوم القرآن حول تفسيره وتسهيل فهمه، وشرح معانيه، يقول الزرقاني صاحب مناهل العرفان:

« وينتظم ذلك: علم التفسير، وعلم القراءات، علم الرسم العثماني، وعلم إعجاز القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم إعراب القرآن، وعلم غريب القرآن وعلوم الدين واللغة، وغير ذلك » .

أوصلها الزركشي (ت ٧٩٤) في كتابه ((البرهان في علوم القرآن)) إلى سبع وأربعين نوعاً أو علماً من هذه العلوم في أربعة مجلدات.

أما صاحب الاتقان وهو إمامنا السيوطي الشافعي مجدد القرن العاشر الهجري (ت ٩١١) فقد بحث ثمانين علماً من هذه العلوم مقتفياً في منهجه بصورة عامة أثر الزركشي وناظراً في كتابه نظر المتفحص.

وقد بحث العلماء في السور التي فيها ناسخ ومنسوخ فوجدوها (٢٥) سورة، والسور التي فيها منسوخ فقط (٤٠) سورة، والسور التي فيها ناسخ فقط (٦) سور والسور التي ليس فيها ناسخ ولا منسوخ (٤٣) سورة وأغلبها في الربع الأخير.

وحقق العلماء أن عدد السور التي نزلت في مكة (٨٣) سورة، ونزل في المدينة (٣١) سورة على التحقيق، ويكون مجموع السور (١١٤) سورة.

نفعنا الله بالقرآن العظيم وعلومه الشريفة وجعلنا من خدّام كتابه الكريم.

إعجاز القرآن:

إعجاز القرآن دليل سيدنا النبي ﷺ على صدق نبوته وعلى أنه رسول من الله يوحي إليه هذا القرآن.

فقد كانت معجزات الأنبياء حسية تهدف إلى قهر وتعجيز من يحضرها ويشهدها كما هي معجزات سيدنا موسى (العصا والثعبان واليد البيضاء وانفلاق البحر...) وسيدنا عيسى: (كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله...) . أما المعجزة الخالدة لنبينا فهي القرآن الذي أرسل لأمة بلغت من الإعجاز البلاغي والبياني مبلغه فجاءهم رسول الله بالقرآن الكريم الذي قال فيه (ق): «مامن الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات مامثله آمن عليه البشر وإنما الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة« . ولذلك تحدى مولانا الكفرة أن يأتوا بمثله أو ببعض سورة منه فقال تعالى: ﴿ **قل لأن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ ، وقال: ﴿ **أم يقولون افتراه، قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنت صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لاإله إلا هو فهل أنتم مسلمون** ﴾ ، وقال: ﴿ **أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله**

وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ ، وقال: ﴿ **أم يقولون تقوله بل لايؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾ . فهذا التحدي لجميع الأجيال البشرية عبر القرون فإن لم يستطيعوا أن يأتوا بعشر سور مفتريات فليأتوا بسورة مثله، فإن لم يستطيعوا فليأتوا بحديث مثله، فإن لم يستطيعوا ولن يستطيعوا فليعلموا أنه أنزل بعلم الله وأنه من لدن حكيم عليم.

وأن التحدّي الذي تضمنته آيات القرآن إنما هو تحد بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج من ذلك، وأن قليل القرآن وكثيره في شأن الإعجاز سواء، وهو كائن في رصف القرآن وبيانه ونظمه، ومباينة خصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب وغيرهم من الأمم من الإنس والجن.

ويلاحظ أن الذين تحداهم به كانوا يدركون أن ما طولبوا به من الإتيان بمثله أو بعشر سور مثله مفتريات هو هذا الضرب من البيان الذي يجدون في أنفسهم أنه خارج عن جنس بيان البشر، وأن الذي تحداهم بهذا القرآن قد أوتوا القدرة على الفصل بين الذي هو من كلام البشر والذي هو ليس من كلامهم.

ماهية التحدي:

لا يقصد بالتحدي الإتيان بمثل القرآن مطابقاً لمعانيه، بل أن يأتوا بما يستطيعون افتراءه واختلافه من كل معنى أو غرض مما يعتلج في نفوس البشر، وهو (التحدي) للثقلين جميعا إنسهم وجنّهم متظاهرين، وهو تحدّ مستمر قائم إلى يوم القيامة.

هذا وإن ما في القرآن من مكنونات الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب آيات الله في خلقه، كل ذلك بمعزل عن هذا التحدّي المفضي إلى الإعجاز، وإن كان ما فيه يدل على أنه من عند الله تعالى.

ماهية الإعجاز:

استبعد العلماء أن يكون الإعجاز في الكلمة المفردة من القرآن، لأن أوضاع اللغة ملك مشاع لجميع الناس، وقد ينطق بها المفحمون فلا يبينون، كما أن معاني الكلمة المفردة لا تزيد ولا تتجدد، كما استبعدوا أن يكون في الحركات والسكنات في الجمل القرآنية، لأن مسيلمة وغيره قد تعاطوه في بعض ما عارضوا به القرآن فما انتهوا إلى شيء، ويستبعد أن يكون الإعجاز بالمقاطع والفواصل (كالقوافي في الشعر) لأن العرب قد قدروا عليه في روائع قصائدهم، أو أن يكون في الاستعارة والمجاز، لأنها لا تشمل كل آيات القرآن، فإن قلنا بهما كان القرآن معجزا في بعض وغير معجز في بعض وهو ليس كذلك.

فالسر في إعجاز القرآن نظمه.

فالإعجاز في نظم القرآن ليس إلا توخي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم، فلا نظم في الكلمة ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، مثاله قوله تعالى:

﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ .

تطبيقاً لما تقدم: لو أخذنا كلمة من هذا النص من بين أخواتها فهل تؤدي هذا المعنى وهي في مكانها في الآية مثلما تؤديه لو كانت مفردة ﴿**أبلعي**﴾ أو اعتبرناها وحدها من غير أن ننظر إلى ما قبلها أو بعدها .

إن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت، وأن نوديت بـ ﴿**يا**﴾ دون أيتها، وأنه أضاف للماء الكاف ﴿**ماءكِ**﴾ دون أن يقول: ابلعي الماء .

ونادى السماء بما هو من شأنها ويخصها .

ثم قال: وغيض الماء: بالمبني للمجهول على أنه لم يقض إلا بأمر آمِرٍ وقدرة قادر، ثم أكد ذلك فقال: وقضي الأمر.

ثم ذكر فوائد هذا الأمر: ﴿**واستوت على الجودي**﴾ وأضمر ذكر السفينة تفخيماً لشأنها . ثم فعل ﴿**قيل**﴾ الذي بدأ به الكلام جعلها في الخاتمة ﴿**وقيل بعداً**﴾ .

هذا الاتساق العجيب هو ما يسمى بالروح التركيبية للنص القرآني، وهذه الآية نفسها فيها من الاستعارة الجميلة اللطيفة ما أعطت النص إعجازاً خاصاً، فقد كان يمكن أن يقول:

وقيل يا أرض اشربي ماءكِ، ويا سماء امنعي، وأزيل الماء، ونَفُذَ الأمر، واستقرت على الجودي، وقيل هلاكاً للقوم الظالمين.

فيتحقق الإعجاز اللفظي فقط، أما وقد استعير:

لفظ البلع دون الشرب.

ولفظ أقلعي دون امنعي.

ولفظ قُضي دون نَفُذَ،

واستوت على الجودي دون استقرت،

كل ذلك ارتفع بالآية إلى الإعجاز .

وكذا الأمر في المقاطع والفواصل (أوائل الآيات وأواخرها) مثل: ﴿**ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له مالاً ممدوداً، وبنين شهوداً، ومهَّدت له تمهيداً، ثم يطمع أن أزيد** ﴾ .

إذا قرأناها على هذا النحو: اتركني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له مالاً مبسوطاً، وبنين حاضرين، ومهّدت له تمهيدا ثم يطمع أن أُكثِر. هذا إعجاز في نظم المعاني مع الألفاظ، ولكننا أغفلنا أثر المقطع والفاصلة، فهبط مستوى الكلام إلى مستوى آخر.

وهكذا فالقرآن معجز في عدة معان مما ذكر بالكلمة القرآنية، والنغم القرآني (أي النظم الموسيقي)، وبالتصوير الفني الذي يعبر بالصورة المحسَّةً المتخيلة عن المعنى الذهني، فيعطيها حركة ومشاهدة طبيعية، فإذا بالحوادث حية فيها الحركة فإذا أضاف إليها الحوار اكتملت، ونسي المستمع أن هذا كلامٌ يتلى ومَثَلٌ يضرب.

وقد زيد على ذلك الإعجاز البياني في لغة الأرقام حيث قام رشاد خليفة المتخصص في الكيمياء الحيوية من جامعة كاليفورنيا بأمريكا بإعداد هذا البحث، مثاله:

أن الله تعالى بدأ كتابه الكريم بالبسملة وهي: بسم الله الرحمن الرحيم وهي (١٩) حرفاً ثم اكتشفت أن كل كلمة من كلمات البسملة تتكرر من مكررات العدد (١٩) فمثلاً:

اسم ﴾ تتكرر ١٩ مرة في القرآن.

﴿ الله ﴾ تتكرر ٢٦٩٨ وهو حاصل ١٩ ضرب ١٤٢.

﴿ الرحمن ﴾ تتكرر ٥٧ وهو حاصل ١٩ ضرب ٣.

﴿ الرحيم ﴾ تتكرر ١١٤ وهو حاصل ١٩ ضرب ٦.

فهل يستطيع هذا أي لغوي اليوم توفرت فيه بعض علوم القرآن الكريم.

إيراد:

قدم إلى داري في حي المهاجرين رجل يعمل في هذا الحقل (الإعجاز العددي في القرآن)، وألقى محاضرة أمام طلابي الأكارم أساتذة حلقات الفقه الشافعي، فظهر من هذه البحوث أنها أبحاث

تلفيقية لجأ فيها أصحابها إلى ملاحظة ظواهر متكررة بالنسبة للرقم ١٩ هذا الرقم الذي اعتز به البابيون والبهائيون من الفرق الضالة الكافرة وبذلك علينا الانتباه إلى أن نشر أمثال هذا البحث قد يكون مصدره أمثال هذه الفرق، فيكون البحث ظاهره الإيمان وباطنه التشكيك والنقض للشريعة الغراء وأرى أنه مادامت هذه القضية قد سكت عنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والعلماء من بعده فالأفضل عدم توسيع هذه الدائرة لئلا يكون ذلك تفسيراً بالرأي الذي حذرنا منه نبينا حين قال: «من قال برأيه فليتبوأ مقعده من النار»، وقال أيضاً: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»(ت) .

بعض فوائد الترقيم:

وجد أن عدد حروف القرآن الكريم مليون وخمسة وعشرون ألفاً .

وأن عدد آياته ٦٦٦٦ وعدد كلماته ٧٧٤٥٠ كلمة.

ونصف القرآن الكريم حسب الآيات هو من سورة الشعراء ﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ .

ونصفه حسب الأحرف قوله تعالى: ﴿لقد جئت شيئاً نكرا﴾ النون من النصف الأول، والكاف من النصف الثاني. وقيل أن نصفه في كلمة (وليتلطف) الواو واللام والياء والتاء من النصف الأول والباقي من النصف الثاني.

ونصفه حسب السور الحديد، والمجادلة من النصف الثاني.

أخيراً :

في نهاية الكلام باختصار عن كتاب الله الخاتم لكتبه تعالى، وكلمة الله الفصل والأخيرة في تشريع البشرية إلى يوم الدين، إنه المعجز في أكثر من جهة، معجز في:

١- أسلوبه البياني.

٢- إخباره عن المغيبات.

٣- سمو تشريعه وشموله.

٤- إعجازه العلمي.

٥- اتساق نظرياته وأحكامه.

٦- أثره وفاعليته في الأفئدة.

مقاصد القرآن الكريم:

نزل القرآن في مجتمع جاهلي انتشر فيه الضلال وصارت شريعة الغاب متفشيةً فيه، وأصبحت النظم الاجتماعية ظالمة لطبقة عامة الشعب العربي، وساد الظلم والاستغلال، فسطع نور شمس القرآن، فأنار حياة الإنسان بما جاء به من أحكام ضد الظلم والطغيان وقصد القرآن عدة جوانب في حياة الإنسان منها أربعة أمور أساسية:

١- الهداية إلى العقيدة السليمة:

حيث دعا إلى نبذ الأوثان والخرافات وسار نحو الهدى والإيمان بالله تعالى، والإقبال على نيل رضاه، وهدّم كل الحواجز التي تحول دون الوصول إليه، وأقِر عقيدة الإيمان بالرسل والملائكة والكتب المنزلة واليوم الآخر والقضاء والقدر كما عرفنا سابقا. وهذه العقيدة ليست بدعا وإنما هي ﴿ فِطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ .

٢- الهداية إلى العبادة الصحيحة والتي تتفق مع العقل:

فالأوثان والأحجار، والشمس والقمر والنار لا تضرٍ ولا تنفع وهذا ما يمليه العقل السليم فلا يمكن أن يَحدَّ الإله حدود ولا زمان ولا مكان وإلا صار مخلوقا، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ لأنه يتصف بصفات ليست كصفات البشر، قال سيدي الشيخ محي الدين بن عربي:

جلّ عن حلولٍ وعن اتحاد وعن العقول في فهم المراد

أي أن الله تعالى لا يمكن أن يحدَّه شيء فهو موجود منذ الأزل

حيث « كان الله ولا شيء غيره » .

والعبادة بما فيها من صلاة وصيام لا تعتمد فقط على الفكر والعقل بل هي إقرار من الإنسان بأنه عبد، وأن الله واحدٍ لا شريك له، وهذه الوحدانية تتكرر له سبحانه في كل لحظة وكل ساعة وكل يوم، فليست ضرباً من العبث واللهو بل لها معنى سام أعطاه إياها الإسلام، فهي خضوع يُمثّل أعلى درجات العزة للإنسان وأرقى درجات التربية الدينية التي تجعل المجتمع الإسلامي يسير نحو الكمال والحضارة فلا بغضاء ولا حسد لأن الخلق كلهم عيال الله أحبهم إلى الله أنفعهم لعياله.

٣- التشريع الشامل لنواحي الحياة:

نرى هذه الناحية حين نطلع على جوانب الإسلام ككل، فالأمة الإسلامية مكلفة بمراعاة تعاليمها، وسبب هذا التكليف أنه أنزل لجلب المصالح للإنسان ودرء المفاسد عنه، فأحكامه مثلاً تتناول:

آ- المسائل المدنية: من بيع وشراء ورهن (بما يسمى في عصرنا القانون المدني) إلا أن هذا وضعي وذاك تشريع الله تعالى.

ب – الأمور الجنائية: كالعقوبات كعقوبة القتل والزنى والسرقة والردة وشرب الخمر وقطع الطريق وقذف المحصنات التي تسمى في الشريعة الحدود (وفي عصرنا القانون الجزائي) وهناك التعزيرات .

ج – نظام الأسرة: من خطبة وزواج وإرث ونفقة (قانون الأحوال الشخصية) .

د – العلاقات الدولية: في حالة السلم والحرب والعدوان وما يجب علينا اتخاذه في الإعداد للمعركة.

كقوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعم من قوة﴾ وقوله: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلم وأنتم الأعلون والله معكم﴾ وهناك أنظمة أخرى، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلاقة المسلمين بغيرهم في الأفراد والدول والعلاقات الاقتصادية.

هـ – الأخلاق: وهي وإن كانت موجودةً في الجاهلية لكنها بشكل مسرفٍ وغير منتظم يقول ﷺ: « خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » وقوله « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . ونجدها مبثوثة في كتاب الله تعالى: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ و﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ و﴿ولا تجسسوا﴾ إلى بقية الأخلاق التي أتى بها القرآن، كالصدق والأُخُوَّة، والأخلاق التي نهى عنها كالكذب والغش والغيبة والحسد، وماذاك إلا لكي ينشأ المجتمع فاضلاً كريما قويا متماسكا يكفل للأمة العزة والبقاء.

فكل ما سبقه من الكتب السابقة بطل العمل بها، ولا يقبل العمل إلا بما في القرآن الكريم لأنه الناسخ لكل ما قبله، قال تعالى:

﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ .

قال صاحب الجوهرة:

وخصَّ خيرُ الخلق أنْ قد تمما به الجميعَ ربنا وعمّما
بعثتُهُ فشرعه لاينسخ بغيره حتى الزمان ينسخ
ونسخه لشرع غيره وقع حتماً أذلَّ الله من له منع
ونسخَ بعض شرعه بالبعض أجزْ وما في ذا له من غض

روي عن سيدنا علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

– ستكون فتنة؟

قال سيدنا علي: ما المُخْرِجُ منها يا رسول الله؟

قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، ما تركه من جبار إلا قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم.

هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.

هو الذي لم تنتهِ الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد ﴾

من قال به صدق، ومن عمل به أُجِر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.

حديث يعمل به في فضائل الأعمال ومناقب الرجال وقد خرّجه الترمذي في فضل القرآن.

ذلك هو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنه الكتاب الذي أخرس الفصحاء، وأسكت البلغاء، وأدهش الساسة وحيَّر الفلاسفة وخلب عقول العلماء، وسجدت له العرب المستعربة ، وعجزت عن معارضته، بل عن الإتيان بأقصر سورة من مثله فلما علموا أن لا طاقة لهم بذلك، عمدوا إلى السيف والسنان وتركوا المعارضة باللسان.

إنه الهداية لسعادة الدارين وهناء الحياتين ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ .

متعنا الله بالاستمساك بهديه وهدي نبيه وهدي الأئمة الأربعة المجتهدين، وختم لنا بالوفاة على عقيدة أهل السنة والجماعة، إنه أكرم مسؤول وبالإجابة جدير.

الركن الإيماني الرابع

الإيمان بالأنبياء والرسل

إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام جائز، وهذه العقيدة مستمدة من قولنا بعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، لأن فيها إثبات الرسالة لنبينا ﷺ، ويلزم تصديقه في كل ما جاء به، ويدخل فيه التصديق بالرسل.

قال الناظم:

وواجبٌ لرسله الأمانة والصدق والتبليغ والفطانهْ

ومستحيل ضُدها فلتعلم وجائز كالأكل في حقهم

<u>ما يجب في حق الرسل وما يستحيل</u> : تقدم معنا بعض الجائزات في حقه تعالى.

ومما يجب شرعاً أن يعلم أن إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام جائز عقلاً (أي ليس بواجب ولا مستحيل) والرسول بشر حرٌّ ذكر أوحي إليه بشرع ليعمل به ويبلغه، أما الأنبياء فلم يؤمروا بالتبليغ، ويجب في حقهم أربعة أمور ويستحيل عليهم أضدادها:

١- الصدق في دعوى الرسالة: وفيما يبلغونه عن الله تعالى، وفي الكلام المتعلق بأمور الدنيا، كقام زيد وقعد عمروٍ، والمراد صدقهم ولو في حال المزاح أي الانبساط مع الغير، لما في الحديث « **أمزح ولا أقول إلا حقاً** » .

ويستحيل عليهم الكذب، والكذب هو عدم مطابقة خبرهم للواقع، لذا يؤول كل ما ظاهره الكذب، كما في واقعة سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام فيما يتعلق بالأصنام عند قولهم ﴿ من فعل هذا بآلهتنا؟ ﴾ فإن كلامه مُخَرَّجٌ مَخرَجَ التشنيع والتقريع حيث لم يكن عند الأصنام غيره، وقال أهل اللغة إن الجملة شرطية﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ فليس في الجملة أي كذب.

وقول نبينا ﷺ لذي اليدين عند السهو في الصلاة « **كل ذلك لم يكن** » ، فهذا ليس كذباً، بل أخبر على حسب اعتقاده، ثم تذكر ورجع عن قرب، والسهو بحق الأنبياء جائز، لذا ورد في الصحيحين: إنما أنا بشر أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني (ولكن نسيانهم وسهوهم من الله تعالى لا من الشيطان ولهذا ورد في الموطأ: (إنما أُنسَّى لأسُن))[1] .

كذا قوله ﷺ « للذين رآهم يلقّحون النخل: لو تركتموها لصلحت » فتركوها فشاصت (التمر إذا لم يلقح)، كان من باب الرجاء والإنشاء، لأن المعنى كان في رجائي ذلك، والإنشاء لا يتصف بصدق ولا كذب، وعدم وقوع المترجى لا يعد نقصاً. ا هـ (باجوري).

وأما الدليل على صدقهم فلأنهم لو لم يصدقوا لكذبوا، ولو كذبوا لكان خبر الله تعالى كاذباً أي خبره التنزيلي لا الحقيقي. وبيان ذلك أن رب العزة صدقهم فيما أخبرونا به من كونهم رسلاً مبلغين عنه بإظهار المعجزة على أيديهم النازل ذلك منزلة قوله تعالى (صدق عبدي في كل ما يبلغ عني)، فهو خبر في المعنى، وكون خبره تعالى كاذباً محال، لأن خبره تعالى لا يكون إلا على وفق علمه تعالى فيكون صادقاً، ويكون مقابله الكذب وهو بحقه مستحيل.

---

[1] فصلت في هذه المسألة قليلاً في كتابي الثالث في التوحيد (نفحات منبرية في القضايا الإيمانية)وما ذكرته خلاصة لما تلقيته عن إمامنا الشيخ عبد الرحمن الشاغوري في جلسة الدرس العام يوم الاثنين حيث كنت أقرأ عليه كتاب الإبريز للشيخ الدباغ.

لكن لا يخفى على أن هذا الدليل إنما يدل على صدقهم في دعوى الرسالة وفيما يبلغونه عن الله تعالى، والذي يدل على صدقهم مطلقاً هو وجوب الأمانة لهم الشاملة لعدم الكذب مطلقاً .

٢- الأمانة: وهي حفظ الجوارح الظاهرة والباطنة عن التلبس بكفر قبل النبوّة أو بعدها، وعن فعل الكبائر والصغائر بعد الوحي وقبله (فيجب تأويل كل ما أوهم من الكتاب والسنة نقصاً في حقهم أو في حق الملائكة) .

ويستحيل عليهم ضدها وهي الخيانة بقول أو فعل شيء منهي عنه قبل النبوة وبعدها، وكل ما ورد مما يدل على وقوع ذلك من سيدنا ونبينا ﷺ فمؤول، كقوله تعالى:

- ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ .

- ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ .

- ﴿استغفر لذنبك﴾ .

فالمراد بالذنب ذنبه على فرض وقوعه .

بحيث لو وقع لكان مغفوراً، أو ذنبُ أمته، والمراد بالوزر أثقال الوحي فإنه كان يثقل عليه أولاً ثم وضعه عنه سبحانه.

وكذا يؤول ما وقع من الأنبياء مما ظاهره المعصية:

- كما وقع لسيدنا يوسف مع إخوته على القول بنبوتهم فإنه كان بمقتضى الحقيقة، وكخرق السفينة وقتل الغلام . الواقع من سيدنا الخضر . فهو بحسب الظاهر حرام وبحسب الباطن حكم بأمر الله تعالى (وما فعلته عن أمري) وكذلك تؤول واقعة سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام فإنها لإنفاذ مراده تعالى فهو وإن كان منهيا ظاهراً فهو مأمور باطناً (جرداني) .

والدليل على أمانتهم أنهم لو لم يكونوا أمناء لخانوا بفعل منهي عنه، ومنه الكذب، ولو خانوا بفعل ذلك لكنا مأمورين بالخيانة لأنه تعالى أمرنا بالاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم، إلا ما ثبت أنه من خصوصياتهم، وكوننا مأمورين بالخيانة باطل لأنه تعالى لا يأمر بالخيانة بل نهى عنها فالأنبياء والرسل معصومون لا تقع منهم معصية قط ولا مكروه ولا خلاف الأولى قبل النبوة وبعدها .

٣- الفطانة: أي الذكاء والتيقظ للأمور بحيث تكون فيهم قدرة على إلزام الخصوم وإبطال دعاويهم الباطلة وهي ناشئة عن رجاحة العقل وشدة ذكائه.

ويستحيل عليهم ضدها وهي البلادة والغفلة لأنهم إنما أرسلوا لإقامة الحجج وإبطال جدل المجادلين، والغافل أو البليد أو الأبله لا يستطيع ذلك.

والدليل على فطانتهم أنهم لو لم تكن لديهم فطانة لكانوا بلداء، ولو كانوا بلداء لما قدروا على أن يقيموا حجة قاطعة وبرهاناً قوياً على الخصم (المجادل)، وكونهم بلداء لا يقدرون على إقامة الحجة باطل، لأن القرآن دل على فطانتهم بإقامتهم الحجة، قال تعالى:

﴿وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾.

وقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه أن آتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم ربيَ الذي يحيي ويميت قال: أنا أحيي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾ وقال حكايةً عن قوم نوح:﴿يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾ وقال لسيدنا ونبينا محمدﷺ: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

ومعلوم أن من لم يكن فطناً بأن كان مغفّلاً لا تمكنه إقامة الحجة ولا المجادلة، وهذه الآيات وإن كانت واردة في بعضهم إلا أنّ ما ثبت لبعضهم من الكمال الذي لا يتم المقصود إلا به يثبت لجميعهم فثبتت الفطانة للجميع.

٤- التبليغ: أي تبليغ ما أرسلوا لأجل تبليغه بكل أنواعه الاعتقادي والعملي، فلم يتركوا شيئاً مما أمروا بتبليغه من غير بلاغ وإن لم يكن أحكاما.

ويستحيل عليهم ضده وهو الكتمان لأي أمر مما أمروا بتبليغه للخلق، ولو جاز عليهم كتمان شيء لكتمه سيّدُهم وخيرهم قاطبة سيدُنا رسول الله ﷺ الذي قال فيه رب العزة:

﴿وتُخفي في نفسك ما الله مبديه﴾.

فلو كتم شيئاً لكتم هذه الآية وهو لم يفعل ﷺ.

والدليل على تبليغهم الرسالة التي أمروا بتبليغها أنهم لو كتموها لكنا مأمورين بكتمان العلم لما تقدم من أن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم، وكوننا مأمورين بكتمان العلم باطل، لأن كاتم العلم ملعون، قال تعالى: ﴿إنَّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيَّناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾.

وقال عليه الصلاة والسلام: « **كاتم العلم يلعنه كل شيء حتى الحوت في البحر والطير في السماء**» .

ما يجوز في حقهم عليهم الصلاة والسلام:

ويجوز في حقهم عليهم الصلاة والسلام كُلُّ مالا يؤدي إلى نقص في مراتبهم العليّة كالأكل والشرب والمرض غير المنفر، ونحو ذلك كالمشي والركوب والبيع والشراء والجماع للنساء على وجه الحل، والنوم بالعين لا بالقلب، والابتلاء بالمحن كما وقع له ﷺ من الجوع، وأذى قومه وخدش جبينه وانكسار سنّه ﷺ، وقد اقتضت الحكمة الربانية أن يقع ذلك لهم لأنهم قدوة للأمة، وللدعاة خاصة، فإذا نظر العبد في أحوالهم، وما نزل بهم من البلاء مع أذية الخلق لهم عَلِمَ أن الدنيا لا قيمة لها عند الله، فأعرض عنها وعلق قلبه بربه سبحانه.

والدليل على جواز كلّ مالا يؤدي إلى نقص في مراتبهم مشاهدة وقوعه بهم لمن عاصرهم وبلوغُ ذلك لنا بالأحاديث الصحيحة المتواترة، فلو لم يكن جائزاً في حقهم لما وقع بهم، فوقوعه أقوى دليل على جوازه، لأن الوقوع فرع عن الجواز.

وجميع ما تقدم في حق الرسل يأتي في حق الأنبياء إلا التبليغ

فإنه خاص بالرسل، وقال أهل التوحيد: يجب على النبي أن يبلغ أنه نبي ليحُترم ويُعظَّم، والله أعلم.

والرسول بشر حر ذكر سليم عن منفّر طبعاً (وإن جل أو كَثُر ناقلوها) كعمى وبرص وجذام، وبلاء سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام لم يصحَّ أنّه منفر.

والرسول أوحي إليه بشرعٍ يعمل به ويبلغه. كما تقدم. يؤيده الله تعالى بالمعجزة تكرماً منه.

والمعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي (الذي هو دعوى النبوة أو الرسالة) منزَّلة مَنْزِلة قول الله تعالى: صدق عبدي فيما يبلغ عني.

ولا بد للنبي من معجزة للبرهان على صدق دعواه، لئلا يختلط الحق بالباطل، والمعجزة هي إحدى خوارق العادات السبع المعروفة وهي:

١- المعجزة: وقد تقدمت. قال صاحب الجوهرة عن الأنبياء:

بالمعجزات أيدوا تكرما وعصمةَ الباري لكلٍّ حتّمَا

٢- الإرهاص: وهي التأسيس، ويظهر قبل النبوّة كتظليل الغمام وسلام الشجر والحجر على نبينا محمد ﷺ.

٣- الكرامة: تظهر على يد ظاهر الصلاح وهو الولي (أي العارف بالله تعالى وبصفاته حسب الإمكان) المواظب على الطاعات، المجتنب للمعاصي، إلا أن يتوب، غير المنهمك في الشهوات ولو مباحة. قال صاحب الجوهرة:

وأثبتن للأوليا الكرامه ومن نفاها فانبذن كلامه

٤- المعونة: تظهر على يد العوام المستورين تخليصاً لهم من شدة.

٥- الاستدراج: يظهر على يد فاسق أو كافر خديعة له ومكراً وإهانة، والعياذ بالله تعالى.

٦- الإهانة: وتظهر على يد العبد تكذيباً له (كتفل مسيلمة الكذاب في عين أعمى لتبرأ فعميت الصحيحة).

٧- السحر: وهو فعل أشياء أو تخيلها بطلاسم موهمة، وهو فسق أو كفر، ومنه الشعبذة وهي خفة اليدين بحيث يظهر الشيء حقيقة وليس كذلك[1].

والسحر له حقيقة وتأثير عند جمهور العلماء من أهل السنة والجماعة وقد تترتب عليه آثار حقيقية لكنها محدودة، أي أن الساحر لايستطيع أن يقلب الذكر أنثى أو الحيوان إلى إنسان، أو العكس، مستدلين بأدلة تنظر في مواضعها ويكفينا قول مولانا عز وجل: ﴿وماكفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ومايعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله﴾.

وأفضل الخلائق على الإطلاق نبينا سيدنا محمد ﷺ ثم سائر أولي العزم من الرسل سيدنا إبراهيم فموسى فعيسى فنوح، فسائر الرسل فالأنبياء. قال صاحب الجوهرة:

والأنبيـــا يلونه في الفضل وبعدهم ملائكة ذي الفضل

---

[1] أجمع علماء الأمة على تحريم السحر وعلى أنه من أكبر الكبائر، فإن كان السحر أقوالاً وأفعالاً توجب تكفير صاحبها كان السحر كفراً، وأما إذا كانت أقوالهم وأفعالهم ليست كفراً وإنما هي محرمة فقط كان السحر محرماً لما فيه من إضلال الناس حيث يوهم الساحر أنه قادر على صنع أمور خارقة للعادة وهي اختصاص الله تعالى ولذا قرن السحر بالشرك بالله، وفي حديث الإمام أحمد: من أتى كاهناً أو عرافاً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد. وذهب أبو حنيفة إلى كفر الساحر وقتله ولايستتاب وإمامنا يقول بعدم كفره ولايقتل إلا إذا تعمد القتل، ومالك يرى قتل الساحر المسلم ويحكم بكفره.

هذا وقوم فَصَّلوا إذ فَضَّلوا وبعضُ كلٍّ بعضُه قد يفضل

والأصح وقف عدد الأنبياء، ولكن نؤمن عيناً بما ورد في القرآن الكريم على أنهم رسل وهم:

سيدنا آدم ـ سيدنا إدريس ـ سيدنا نوحٌ ـ سيدنا صالحٌ ـ سيدنا هودٌ ـ سيدنا إبراهيم ـ سيدنا لوطٌ ـ سيدنا إسماعيل ـ سيدنا إسحق ـ سيدنا يعقوب ـ سيدنا يوسف ـ سيدنا يونس ـ سيدنا شعيبٌ ـ سيدنا موسى ـ سيدنا هارون ـ سيدنا داود ـ سيدنا سليمان ـ سيدنا إلياس ـ سيدنا اليسع ـ سيدنا ذو الكفل ـ سيدنا أيوب ـ سيدنا زكريا ـ سيدنا يحيى ـ سيدنا عيسى ـ وسيدنا **محمد** صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم.

وأما سيدنا الخضر فهو نبي صلوات الله عليه وعلى نبينا وسلاماته لكن اختلف في رسالته وحياته والراجح حياته، والله أعلم.

وقد نظمهم الشيخ محمد الدمنهوري على حسب ترتيبهم في الإرسال:

ألا إن إيمانـاً بِرُسْـلٍ تحتّما

وهم آدمُ إدريسُ نوحٌ على الولا

وهود وصالح ولوط مع إبراهيم أتى

كذا نجل إسماعيل اسحقُ فُضِّلا

ويعقوب يوسف ثم يتلو شعيبهم

وهارونُ مع موسى وداود ذو العلا

سليمان أيوب وذو الكفل يونس

والياس أيضاً واليسع ذاك فاعقلا

كذا زكريا ثم يحيى غلامه

عيسى **وطه** خاتماً قد تكمّلا

وليست النبوة مكتسبة، قال صاحب الجوهرة:

ولم تكن نبوة مكتسبـــــه ولو رقى في الخير أعلى عقبه

بل ذاك فضل الله يؤتيه لمن يشاء جلَّ الله واهب المـنن

وكرامة الولي معجزة لنبيه لدلالتها على صدق الولي المستلزم صدق النبي لأنه تابعه، وربما كانت بعد الموت لصفاء النفس من الأكدار حينئذ والقاعدة التوحيدية تقول: **ما كان معجزة لنبي جاز أن تكون كرامة لولي**. ولا يبلغ وليٌ درجة نبي، لأن النبي معصوم، آمن من خوف سوء الخاتمة، مكرَّم بالوحي ومشاهدة الملك، مأمور بتبليغ الأحكام وإرشاد الأنام، هذا بعد الاتصاف بكمالات الأولياء، وما نقل عن عدد الأنبياء فضعيف والصحيح عدم حصرهم صلوات الله عليهم وعلى نبينا، ويلي الأنبياء في الفضل خواص الملائكة كما تقدم.

ومما يذكر استئناساً قول وهب بن منبه:

- عاش سيدنا آدم ١٠٠٠ سنة
- وكان من هبوطه إلى الهجرة النبوية ٦١٣٠ سنة.
- وكان بين موته وطوفان نوح ٢٢٤٠ سنة.
- وبين سيدنا إبراهيم وموسى ٦٠٠ سنة.
- وبين سيدنا موسى وداود ٥٠٠ سنة.
- وبين سيدنا موسى وعيسى ١٩٧٥ سنة.
- وبين سيدنا داود وسليمان وعيسى ١١٠٠ سنة.

وبين سيدنا عيسى وسيدنا محمد رسول الله ٦٠٠ (٥٧٦) سنة.

سيدنا رسول الله ﷺ:

رسالة نبينا ﷺ عامة لجميع الناس أنبياء وغيرهم، والأنبياء نوابه وخلفاؤه في عالم الأجسام قال تعالى ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به ولتنصُرُنَّه﴾ وهو سيدنا محمد ﷺ، ولذلك يقول الشيخ عبد الغني النابلسي رضي الله عنه.

كلُّ النبيين والرسلِ الكرامِ أتوا نيابةً عنه في تبليغِ دعواهُ

فهو الرسولُ إلى كلِّ الخلائقِ في كلِّ الدهورِ ونابتْ عنه أفواهُ

يقول ناظم التوحيد:

واجزم بأن المصطفى التهامي أفضل مبعوث إلى الأنامِ

قد خُصَّ بالإسراء والمعراج والملة الواضحة المنهاج

من ربه كقاب قوسين دنا ونال من عطاه غاية المنى

فهو أول النبيين حقيقة وآخرهم صورة، وقد تقدم أنه أفضلهم، بل أفضل الخلق على الإطلاق من البشر والجن والملك:

وأفضل الخلق على الإطلاقِ نبينا فمِلْ عن الشقاقِ

وآباؤه ﷺ ناجون محكوم بإيمانهم إن شاء الله تعالى، قال تعالى ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ وهم من أهل الفترة الناجون أيضا لقوله تعالى: ﴿وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولا﴾ إلا ما استثناه النص كامرئ القيس وحاتم الطائي. عمرو بن لحي

ويجب معرفة نسبه ﷺ من جهة أبيه ومن جهة أمه، فأما من جهة أبيه فهو:

سيدنا محمد بن سيدنا عبد الله [1] بن عبد المطلب (عامر أو شيبة الحمد) بن هاشم (عمرو) بن عبد مناف (المغيرة) بن قصي (زيد) بن كلاب (حكيم) بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر (قيس) بن كنانة بن خزيمة بن مدركة (عمر) بن إلياس (حسين أو حبيب) بن مضر (عمرو) بن نزار (خلدان) بن معدّ بن عدنان.

وإلى هذا الجد انتهى النسب الشريف الذي انعقد عليه الإجماع، وليس فيما بعده إلى آدم طريق صحيح.

وأما نسبه إلى جهة السيدة والدته فهو:

سيدنا محمد بن السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة (المغيرة) بن كلاب (وهو الجد الخامس للمصطفى ﷺ من جهة أبيه).

توفي والده وأمه حامل به.

[1] لأنني أشعري العقيدة أولاً، ولأنه جدي ثانياً، ولأنه كان على دين إبراهيم الخليل ثالثاً، ولأنه من أهل الفترة رابعاً . . .

ويجب اعتقاد أنه ﷺ ولد بمكة المشرفة قبيل فجر الاثنين ثاني عشر شهر ربيع الأول (أو اليوم السابع منه) فمن احتفل به نال المنى في عامه، يقول ابن الجوزي: «ومما جُرِّب أن من عمل المولد كان أماناً من ذلك العام وبشرى عاجلة بنيل المرام» .

وأمهاته ﷺ من الرضاع بعد أمه ثمان أشدهن خصوصية به ﷺ وأكثرهن ملازمة له السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها .

وبعد الرضاع ردّ إلى أمه التي توفيت، فكفله جده، ثم كفله أبو طالب بعد وفاة جده وله ثمان سنوات، فعمل معه بالتجارة، ثم مع السيدة خديجة بنت خويلد التي تزوجها وهو في سن الخامسة والعشرين، وساعد في بناء الكعبة المشرفة وشارك في حربٍ الأشهر الحُرُم (الفِجار) وفي حلف الفضول في دار عبد الله بن جدعان (ألا يجدوا في مكة مظلوما إلا ونصروه) .

وزوجاته ﷺ الحرائر إحدى عشرة زوجة وأربع سراري (جَوَارٍ) .

الأولى: **السيدة خديجة بنت خويلد** رضي الله عنها توفيت بمكة قبل الهجرةٍ بثلاثٍ سنين وهي بنتُ خمس وستين سنة وسيأتي ذكر أولاده منها رضي الله عنها وروت حديثا واحدا .

الثانية: **السيدة سودة بنت زمعة** رضي الله عنها توفيت أواخر عهد سيدنا عمر رضي الله عنهما .

الثالثة: **السيدة عائشة بنت سيدنا الصديقٍ** رضي الله عنهما توفيت بالمدينة سنة ثمان وخمسين وهي بنت ست وستين وروت ٢٢١٠ حديثا .

الرابعة: **السيدة حفصة بنت سيدنا عمر بن الخطاب** رضيٍ الله عنهما توفيت بالمدينة سنة إحدى وأربعين وهي بنت تسع وخمسين سنة، وروت ستين حديثا .

الخامسة: **السيدة زينب بنت خزيمة** أم المساكين رضي الله عنها توفيت سنة ثلاث للهجرة في المدينة وكان عمرها ثلاثين سنة ولبثت عنده ثلاثة أشهر فقط .

السادسة: **السيدة أم سلمة هند بنت أبي أمية** رضي الله عنهما توفيت سنة ستين في المدينة وهي بنت أربع وثمانين سنة وروت ٣٢٨ حديثٍ.

السابعة: **السيدة زينب بنت جحش** رضي الله عنها توفيت بالمدينة سنة إحدى وعشرين وهي بنت ثلاثٍ وخمسين سنة روت عشرة أحاديث.

الثامنة: **السيدة جويرية بنت الحارث** رضي الله عنها توفيت سنة خمسين في المدينة وروت سبعة أحاديث.

التاسعة: **السيدة صفية بنت حيي** رضي الله عنها توفيت سنة خمسين في المدينة وروت عشرة أحاديث.

العاشرة: **السيدة أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان** رضي الله عنهما توفيت سنة أربع وأربعين.

الحادية عشرة: **السيدة ميمونة بنت الحارث** رضي الله عنها ماتت سنة إحدى وخمسين وهي بنت ثمانين سنة وروت ستة وسبعين حديثاً.

أما **جواريه** ﷺ فهن أربع:

- السيدة **مارية القبطية** رضي الله عنها أم **سيدنا إبراهيم** بن سيدنا محمد ﷺ توفيت في خلافة عمر سنة ست عشرة بالمدينة.

- السيدة **ريحانة القرظية** رضي الله عنها توفيت في عهده ﷺ.

- السيدة **نُفَيسة** وهبتها له السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنهما.

- السيدة **زليخا** القرظية رضي الله عنها.

ولكل زواج من الحرائر حكمة كما نص عليه الأئمة الأعلام وسطروه في كتبهم، وقد ذكرتُ ذلك في كتابي أمهات المؤمنين وألقيته شفوياً في شهر رمضان في إذاعة القرآن الكريم في دولة الكويت سنة ١٤٠٨ هـ ومما ينبغي أن يعلم أنه تزوجهن كلهن بعد إسلامهن رضي الله عنهن.

وأما أولاده ﷺ فهم أفضل الصحابة رضي الله عنهم. لذا كان يقول الإمام مالك:

« لا أُفَضِّل على بضعة رسول الله ﷺ أحداً » .

وهم سبعة على الصحيح ثلاثة ذكور وأربعُ إناث وهم :

١- **سيدنا القاسم** ولد بمكة وعاش قريباً من سنتين وتوفي قبل البعثة بمكة المكرمة رضي الله عنه.

٢- **سيدتنا زينب** أدركت الإسلام وتزوجت أبا العاص بن الربيع (ابنَ خالتها وأسلم قبل وفاته) وهاجرت وماتت سنة ثمان من الهجرة ولها ولدان[1] رضي الله عنها وعن أولادها .

٣- **سيدتنا رقية** أدركت الإسلام وتزوجها سيدنا عثمان وهاجرت وتوفيت أثناء غزوة بدر ولها ولد اسمه عبد الرحمن رضي الله عنها وعن ولدها وزوجها وتُلقَّبُ بذات الهجرتين وهي أول من ماتت من أخواتها .

٤- جدتنا **سيدتنا فاطمة الزهراء** رضيٍ الله عنها تزوجها سيدنا علي ﷺ ولها ثلاثة ذكور وثلاث بنات وتوفي لها من الذكور محسن صغيرا ، توفيت بعد سيدنا النبي ﷺ بستة أشهر، وذريةُ آل البيت أكثرهن من نسلها من السيدين الحسن والحسين رضي الله عنهما .

٥- **سيدتنا أم كلثوم** رضي الله عنها: ولدت بعد البعثة وتزوجها سيدنا عثمان ﷺ وتوفيت سنة تسع من الهجرة وهي عقيم.

٦- **سيدنا عبد الله الطيب والطاهر** رضي الله عنه توفي صغيراً بعد البعثة.

٧- **سيدنا إبراهيم** رضي الله عنه ولد سنة ثمان للهجرة من السيدة مارية القبطية وعاش قريباً من سنتين.

وأسماؤه ﷺ توقيفية باتفاق أوصلها صاحب دلائل الخيرات إلى مئتين، كتبت على جدار القبلة في الحرم المدني بخط الثلث.

وكان سيدنا رسول الله ﷺ قد نبّأه الله تعالى على رأس الأربعين وأيده بالمعجزات الباهرات، وأكرمه بالآيات الظاهرات كانشقاق القمرٍ، وتسليم الحجر والشجر وتسبيح الحصى بكفه ثم الإسراء والمعراج بشخصه جسداً وروحاً إلى بيت المقدس ثم إلى السماء السابعة ثم إلى ما شاء الله تعالى ، ومن أنكر المعراج فقد فسق، ومن أنكر الإسراء كفر ،لصريح النص القرآني به. ومنها ردُّه ﷺ عين قتادة حين سالت على وجهه.

ثم أعظمُ معجزة له ﷺ القرآنُ الكريم المعجزة الخالدة مدى الزمان. وقد تقدم الحديث عنه. قال صاحب الجوهرة:

ومعجزاتــه كثـــيرة غـــرر منها كلام الله معجزُ البشر

---

[1] سيدنا علي وابنه اسمها أمامة تزوجت من علي بن أبي طالب بعد وفاة خالتها السيدة فاطمة رضي الله عنها .

واجزم بمعراج النّبي كما رووا وبرِّئن لعائشـــــه مما رموا

صحابة نبينا ﷺ:

ويلي أولاد سيدنا رسول الله ﷺ الذين ولدوا بعد البعثة عوام البشر في الفضل وهم الصحابة المؤمنون المتقون الذين كانوا في عصر النبوة وإن لم يرووا الأحاديث أو لم يميزوا. ومن عاد إلى الإسلام بعد ردتهٍ عادت صحبته مجردة عن الثواب كعبد الله بن أبي سرح لا كعبد الله بن خطل الذي مات مرتدا، وخير الصحابة بعد أولاده ﷺ سيدنا أبو بكر فعمر فعثمان فعلي، فبقية العشرة المبشرين بالجنة وهم سيدنا أبو عبيدة عامر بن الجراح، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، فأهل بدر فأحد. فبيعة الرضوان (وقت الحديبية) فالسابقون (وهم الذين صلوا إلى القبلتين) أفضلٍ ممن بعدهم، ثم بقية الصحابة رضي الله عنهم. قال ﷺ : (م) «لن يدخل النار أحد شهد بدرا والحديبية». وقال تعالى:

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم﴾ .

هذا وثواب من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة لهم ثواب الهجرتين ففي الحديث (خ): «لكم أنتم ياأهل السفينة هجرتان»، وليس بعد الفتح هجرة ولكن جهاد ونية ففي الحديث (خ): «عن مجاشع: أتيت بأخي بعد الفتح فقلت يارسول الله جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة قال ذهب أهل الهجرة بما فيها. فقلت: على أي تبايعه؟ قال: أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد».

وهؤلاء الصحابة وصفهم مولانا في كتبه التوراة والإنجيل والقرآن الكريم بصفات منها: ﴿محمدٌ رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم – أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين – الذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم﴾ . فالطعن في جيل الصحابة إنما هو طعن في مصادر تلقينا للقرآن والسنة وبالتالي فهو طعن في الدين، وخاصة أن رسول الله وصفهم بالخيرية والأفضلية المطلقة على جميع الأجيال فقال:(خ) «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، إن بعدكم قوم يخونون ولايؤتمنون ويشهدون ولايستشهدون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن».

فهم قدوة الأجيال السابقة واللاحقة في كل زمان ومكان بل هم أمنة الأمة الإسلامية، كما في الصحيح (م) عنه ﷺ: «النجوم أمنة السماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ماتوعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي مايوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي

مايوعدون»، فكما أن الملائكة حفظة السماء فالصحابةُ حفظةُ الأمة من ضياع دينها وتبديله وتحريفه ولهذا فنحن مأمورون بتوقيرهم واحترامهم ومحبتهم. ويجب الكف عن ذكر الصحابة إلا بخير ، قال ﷺ :(ق): « **الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه** » وقال ﷺ « **لاتسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه** » وقال ﷺ: « **إذا ذكر أصحابي فأمسكوا** » .قال صاحب الجوهرة:

وأول التشاجر الذي ورد إن خضت فيه واجتنب داء الحسد

ولأن النبي ﷺ بشَّر العديد منهم بالجنة فقال: (ت) «أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعليٌ في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وسعد بن مالك في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعيد بن زيد في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة» . فهل حضي جيل بمثل ماحظي به صحابة نبينا ﷺ مع تفاوتهم بالدرجة والفضل كما سبق، بحسب السابقة إلى الإسلام والجهاد في سبيله قال تعالى:

﴿ لايستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى ﴾ .

ولهذا أمر رسول الله ﷺ بالأخذ عنهم والإقتداء بهم فقال: (دت هـ)«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ» . وقال (ق): «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله (بن مسعود) وسالم (مولى أبي حذيفة) ومعاذ (بن جبل) وأبي بن كعب» . وقال عن سيدنا عمر(ت): «إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه» . ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ .

ويليهم في الفضل التابعون، فسائر الأمة المحمدية، فغيرها من الأمم، فعموم الملائكة.قال صاحب الجوهرة:

وصحبه خير القرون فاستمع فتابعي فتابع لمن تبع
وخيرهم من وُلّي الخلافه وأمرهم في الفضل كالخلافه
يليهم قوم كرام بررة عدتهم ست تمام العشره
فأهل بدرٍ العظيم الشان فأهل أحد بيعة الرضوان
والسابقون فضلهم نصاً عرف هذا وفي تعيينهم قد اختلف

وذهب جماعة إلى أن كل قرن أفضلُ من الذي بعده إلى يوم القيامة، لحديث: « **ما من يوم إلا والذي بعده شرّ منه** » .

الإيمان باليوم الآخر

وهو يوم القيامة، قال الناظم:

ويجب الإيمان بالذي ورد عنه من المولى المهيمن الصمد

كالحشر والصراط والميزان والبعث والثواب في الجنان

والحور والولدان والأملاك والأنبيا والجن والأفلاك

وقد تقدم الحديث عن الإيمان بالملائكة والأنبياء والجن.

أما اليوم الآخر فقد ذكر له الإمام الغزالي في الإحياء أكثر من مئة اسم وصفة، تدل على أحواله وأهواله. قال صاحب الجوهرة:

واليوم الاخر ثم هول الموقف حق فخفف يارحيم واسعف

وله مقدمات تسبقه ذكرت في الأحاديث النبوية الصحيحة التي بلغ بعضها حد التواتر، تدعى هذه المقدمات بأمارات الساعة قسمها العلماء إلى صغرى ووسطى وكبرى.

١- الأمارات الصغرى:

بعثة سيدنا النبي ﷺ ووفاته، وفتح بيت المقدس واستشهاد سيدنا عمر و عثمان رضي الله عنهما ووقعة الجمل ووقعة صفين « **لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة** » ونزول سيدنا الحسن عن الخلافة « **إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين** » ، ومنها ملك بني أمية، وبني العباس، ومنها نار الحجاز التي أضاءت منها أعناق الإبل ببصرى، ومنها خروج كذابين كل منهم يدَّعي أنه نبي، ومنها زوال ملك العرب وكثرة المال وكثرة الزلازل والمسخ والقذف.

٢- الأمارات المتوسطة:

وهي كثيرة تتزايد وتكثر منها:

قوله ﷺ: « **لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع بن لكع** » أحمد وت واللكع العبد والأحمق والليئم.

وقوله ﷺ: « **لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد** » . أحمد و/د/و/هـ/و/حب/

وقوله ﷺ: « **يكون في آخر الزمان عباد جهال وقراء فسقة** » أبو نعيم وحا .

ومنها: انتفاخ الأهلة أي أن يرى الهلال ساعة يطلع فيقال لليلتين لانتفاخه وكبره (طب) .

ومنها: ما في البخاري « **إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويكثر الجهل ويكثر الزنا ويكثر شرب الخمر ويقل الرجال وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد** » .

وفي الصحيح : « **إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**» .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن سيدنا أنس مرفوعاً: « من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خصلة:

إذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة، وأضاعوا الأمانة، وأكلوا الربا، واستحلوا الكذب، واستخفّوا بالدماء، واستعلوا بالبناء، وباعوا الدين بالدنيا، وتقطعت الأرحام، ويكون الحلم ضعفاً، والكذب صدقاً، والحرير لباساً، وظهر الجَوْر، وكثر الطلاق، وموت الفجأة، وائتمن الخائن وخُوّن الأمين، وصُدّق الكاذب، وكُذّب الصادق، وكثر القذف، وكان المطر قيظاً والولد غيظاً، وفاض اللئام فيضاً، وغاض الكرام غَيضاً، وكان الأمراء والوزراء خونة، والعرفاء ظلمة، والقراء فسقة، إذا لبسوا مسوك الضأن، قلوبهم أنتن من الجيفة، وأحرُّ من الصَّبر، يغشيهم الله فتنة يتهاوكون فيها تهاوك اليهود والظلمة، وتظهر الصفراء، وتطلب البيضاء (الذهب والفضة) وتكثر الخطباء، ويقل الأمر بالمعروف، وحليت المصاحف، وصورت المساجد وطولت المنابر، وخربت القلوب، وشربت الخمور، وعطلت الحدود، وولدت الأمة ربتها، وترى الحفاة العراة صاروا ملوكاً، وشاركت المرأة زوجها في التجارة، وتشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، وحُلِفَ بغير الله، وشهِد المرء من غير أن يُسْتشهد، وسلم للمعرفة، وتفقه لغير الله، وطلبت الدنيا بعمل الآخرة، واتخِذ المغنمُ دولا (ما يتداول من المال واختص الأغنياء وأرباب المناصب بأموال الفيء ومنعوها مستحقيها) والأمانة مغنماً والزكاة مغرماً، وكان زعيم القوم أرذلهم، وعق الرجل أباه، وجفا أمَّه، وبرَّ صديقه، وأطاع امرأته، وعلت أصوات الفسقة في المساجد، واتخذت القِيان والمعازف، وشربت الخمور في الطرق،

واتخذ الظلم فخراً، وبيع الحكم، وكثرت الشُرَط، واتُخِذَ القرآنُ مزاميرٍ، وجلود السباع صفافاً (تجعلٍ على السروج) ولعَنَ آخرُ هذه الأمة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وخسفا ومسخا وقذفا وآيات))) .

٣- الأمارات الكبرى:

الأولى: ظهور الإمام المهدي واسمه محمد بن عبد الله لقوله ﷺ: «**لا تذهب الدنيا حتى يملك رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي يملأ الأرض عدلاً وقِسْطاً كما ملئت ظلماً وجَوْراً** » طب وت حسن صحيح.

وسمي المهدي لأنه يهدي إلى أمر خفي، أو يهدي إلى أسفار التوراة والإنجيل من أرض يقال لها أنطاكية (نعيم بن حماد في كتاب الفتن) وهو من ولد السيدة فاطمة البتول وكونه في ذرية سيدنا الحسن أكثر من الحسين وقيل من نسل العباس ولا مانع من الجمع في شخصٍ واحد من جهات مختلفة كما هو الحال في نسب السيد الوالد رحمه الله فهو حسني أماً وأباً وحسيني أم جد وعباسي أم أب رحمه الله رضي الله عنه.

ومن صفاته أنه أجلى الجبهة ،أقنى الأنف ،وجهه كالكوكب الدريّ وعلى خده الأيمن خال أسود ، يملك سبعَ سنين أو تسع.

ومن سيرته:

يعمل بالسنة، ويملك الأرض كلها، يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، يحثو المال حثواً، تؤتي الأرض أكلها في عهده، وتنعم الأمة في زمانه وترعى الشاة والذئب في مكان واحد .

ومن علامات ظهوره: انحسار الفرات عن جبل من ذهب، وانكساف القمر والشمس في رمضان، وسماع الصوتِ برمضان (أي الصيحةِ بظهوره) وخسف قرية في الشام يقال لها َ حرستا (كما ذُكره ابن عساكر)، ومن علاماته خروج السفياني (عروة) رجل ضخم الجثة بوجهه أثر جُدري، بعينه نُكتة بياض، يخرج من ناحية دمشق من وادي اليابس (لعلها جديدة يابوس) يقتل الصبيان ويبقر بطون النساء يخرج إليه رجل من آل البيت مع جنده فيهزمهم، ويسير إليه السفياني بمن معه فيخسف بهم في بيداء (حا سند صحيح) .

ثم خروج الأبقع من مصر، والأصهب من الجزيرة، والجرهمي في الشام، ويخرج الأعرج الكندي بالمغرب، وكل منهم يفسد في الأرض ولا يصلح، ويغلب السفياني على الأبقع والأصهب، ويسير صاحب الغرب حتى ينزل بالجزيرة فيظهر عليه السفياني أيضاً.

ثم خروج الحارث من وراء النهر ،على مقدمة جيشه رجل يقال له المنصور، يمكّن لآل سيدنا محمد ﷺ يجب على كل مؤمن نصره، فيلتقي بخيل السفياني فيقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم يجتمع مع المهدي ويبايعه. وقيل إن المهدي يقتل السفياني يذبحه تحت شجرة بجوار بحيرة طبرية.

بيعته:

يبايع المهدي بمكة بين الركن والمقام ليلة عاشوراء ،وإذا هاجر إلى المدينة ثم إلى بيت المقدس تخرب المدينة. وعن ابن عباس: يُبعث المهدي بعد أياس حتى يقول الناس لا مهدي ، وأنصاره سبعة علماء مع كل واحد منهم عددهم ثلاثمئة وخمسة عشر رجلاً عدد أصحاب بدر وقيل هم من أهل الشام يسيرون إليه من الشام حتى يستخرجوه من بطن مكة من دار عند الصفا فيبايعونه كرهاً، فيصلي بهم ركعتين عند المقام (وخرجه نعيم بن حماد).

ثم تمهد الأرض للمهدي ويدخل في طاعته ملوك الأرض كلهم. ويستمر حتى يسلم الأمر لروح الله سيدنا عيسى ويصلي به إماما في صلاة الفجر ويموت المهدي بعد سبع سنين أو تسع ويصلي عليه سيدنا عيسى ويدفن في بيت المقدس.

الأمارة الثانية: الدجال: قيل في اسمه صافي بن صياد (أو صائد). وقيل هو إنسي وقيل هو شيطان موثق من زمن سيدنا سليمان بن سيدنا داود. والله أعلم والراجح أنه غير ابن صياد، ويسمى عند اليهود المسيح بن داود.

صفته:

جسيم (فيلمانياً) أحمر جعد الرأس قطط، أعور العين اليمنى، كأنها عنبة طافية، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري (أو زجاجة خضراء)، قصير القامة، شعر رأسه كثيرٌ متفرق (كأن رأسه أغصان شجرة) مكتوب بين عينيه (ك ف ر) يقرؤها كل مسلم ولا يقرؤها الكافر، لا يولد له، يخرج على حمار رجس.

ظهوره:

إذا أراد الله ظهورَه فك عنه حلقة كل عام (من وثاقه الذي ذكره رسول الله ﷺ كما في صحيح مسلم)، فتتبعه قبائل الجن يخرجون إليه بخزائن الأرض.

ويخرج من خُراسان بالمشرق، كما يتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة (كوفية مسدلة الطرفين بدون عقال على الرأس ووضعها بهذا الشكل مكروه عندنا في الفقه لأنه تشبه بهم) كأن وجوههم المجانّ المطرّقة (التروس التي مددت ورققت) .

دعواه:

أول خروجه يدّعى الإيمان والصلاح ويدعو إلى الدّين فيُتّبع ويظهر حتى يقدم الكوفة، ثم يدّعي الألوهية فتغشى عينه وتقطع أذناه،ثم يخرج في خُلة بين الشام والعراق يعيث في الأرض فسادا .

عظم فتنته: (حا عن ابن عمر) قبل خروجه بثلاث سنين ، يأمر الله تعالى السماء في السنة الأولى أن تمسك ثلث مطرها والأرض ثلث نباتها، والسنة الثانية ثلثين وثلثين، والسنة الثالثة يمسك السماء، ويهلك كلّ ذي ضرس وظلف، ويسير معه جبلان أحدهما فيه أشجار وأثمار وماء، والآخر فيه دخان، فيقول: (هذه الجنة وهذه النار) فناره جنة وجنته نار، ويدعو القوم فيؤمنون به فيأمرٍ السماء فتمطر ،والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعاً وأمدَّه خواصر، ويدعو آخرين فيردّون عليه فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل. ويسلطه الله تعالى على رجل قيل: إنه سيدنا الخضر عليه الصلاة والسلام فيوسعه ضربا ويأمره بالإيمان به فيأبى ويقول له: أنت المسيح الدجال الكذاب فأُشرِ من مفرقه حتى يفرَّق بين رجليه فمشى بينهما ثم يقول: قم فاستوى قائما بإذن الله تعالى. فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة، ويقول للناس: إنه لن يسلط على أحد بعدي. فيأخذه الدجال ليذبحه فلا يستطيع ذلك، فيؤخذ بيديه ورجليه فيقذفه يحسب الناس أنه قذفه في النار، وإنما ألقي في الجنة، وهو أعظم الناس شهادة عند الله تعالى.

يحكم في الأرض أربعين يوماً، يومٌ كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامنا . قالوا يا رسول الله: اليوم الذي كسنة تكفينا فيه صلاة يوم قال: « **لا، اقدروا له قدره** » . وكذلك يفعل بالصيام والحج.

ويدخل كلَّ بلد إلا مكة والمدينة تحرسهما الملائكة، فترجف المدينة ثلاث رجفات عند وصوله إليها فيخرج إليه كل كافر ومنافق.

والعصمة منه ومن فتنته تكون بحفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، فيقرؤها عليه، وفي رواية مسلم أيضاً: (من آخر سورة الكهف) .

قتاله وقتله:

يُعِدّ المهدي لقتاله حتى إذا انتهت أيامه نزل روح الله سيدنا عِيسى عليه وعلى نبِينا الصلاة والسلام على المنارة البيضاء شرقي مسجد دمشق بين ملكين، وَنَفسُهُ حيث ينتهي طرْفه لا يجد ريح نفسه كافر إلا مات، فيقتله عند باب لدٍ، فيختبئ جنوده من اليهود خلف الشجر والحجر فيقولان: يا مسلم خلفي يهودي تعالى فاقتله إلا الغرقد .

الثالثة:نزول سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام:

تقدم كيفية نزوله وأنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي مسجد دمشق بين ملكين، فيسأله المهدي أن يتقدم للصلاة فيقول (بعضكم أمراء على بعض) فيصلي سيدنا عيسى خلفه وهو قوله ﷺ « **منا آل البيت من يصلي ابن مريم خلفه** » ثم يتوجه نحو الدجال فيقتله عند باب اللد ولو تركه لذاب كما يذوب الملح. ويمسح سيدنا عيسى وجوه المؤمنين وقد عصمهم الله من الدجال، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة.

ثم يقاتل الناس على الإسلام ويكسر الصليب ،ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يبقى إلا الإسلام.

ويوحي الله إليه إني قد أخرجت عباداً لا يُدانُ لأحد بقتالهم فحرّز عبادي إلى الطور، فيخرج يأجوج ومأجوج.

ويتزوج سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ويولد له، ويحكم أربعين سنة، ثم يحج ويزور المدينة المنورة ويزور السيد الأعظم ويسلم عليه ويردّ عليه السلام، ويُتوفى في المدينة ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه بجوار قبر السيد الأعظم صلوات الله وسلامه عليه فهو الرابع معهم.

ولعله في هذه الفترة يملك الأمراء الصالحون المذكورون في الأحاديث وهم شعيب بن صالح والمعقد والجهجاه والقحطاني ففي (م) « **لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك الناسَ رجل يقال له الجهجاه** » ، وفي (م) « **لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه** » وعند طب وغيره « **ستكون من بعدي خلفاء ومن بعد الخلفاء أمراء ومن بعد الأمراء ملوك جبابرة،ثم يخرج من أهل بيتي المهدي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورا، ثم يؤمَّر القحطاني فو الذي بعثني بالحق ما هو دونه**» وفي بعض الآثار عن نعيم بن حماد أولاهم القحطاني ثم الجهجاه ثم الهيثم المهدي (غير المهدي الأول) والله أعلم.

الأمارة الرابعة:

خروج يأجوج ومأجوج، قال تعالى: ﴿**حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب ينسلون**﴾ وهم من أولاد يافث ولد سيدنا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ومعنى هذين الاسمين من أجيج النار وسموا بذلك لكثرتهم وشدتهم. لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف من صلبه (حب . ن)، وعند عبد الرزاق عن أبي قتادة:« **هم ثنتان وعشرون قبيلة بنى ذو القرنين السد على إحدى وعشرين، وكانت قبيلة منهم غائبة في الغزو هم الترك فبقوا دون السد** » .

صفتهم:

(أحمد طب) عراض الوجوه صغار العيون، صهب الشعور مختلفو الأطوال، وعند الطبراني عن حذيفة: يمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس. وفي الحديث (الجماعة إلا أبا داود) خرج رسول الله فزعا محمرا وجهه ويقول (لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها (أحمد ت حسن حاحب) وفي الحديث إنهم ليحفرون السد كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم ارجعوا فتخرقونه غدا، فيعيده الله أشد ما كان حتى إذا بلغ مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس قال الذي عليهم ارجعوا فتخرقونه غدا إن شاء الله قال فيرجعون فيجدونه كهيئته حين تركوه فيخرقونه فيخرجون على الناس فيأتون على كل شيء فيشرب أوائلهم بحيرة طبرية، وقال آخرهم: قد كان بهذه مرة ماء . وحصروا المسلمين عند جبل الخَمَر ببيت المقدس فقالوا:

قتلنا أهل الأرض فلنقتل من في السماء .

فرموا بالنشاب فردَّها الله عليهم وقد خضبت بالدماء فقالوا: قتلنا أهل الأرض والسماء .

وصار رأس الثور لدى المسلمين خيراً من مئة دينار، فرغب سيدنا عيسى ومن معه إلى الله تعالى، فبعث على يأجوج ومأجوج النغف (دود يدخل في أنوف الإبل والغنم) في رقابهم فقتلهم فدعا سيدنا عيسى، فبعث الله طيرا كأعناق البخت فطرحتهم حيث شاء الله تعالى.

ثم بعث الله مطراً لا يكنّ منه مدر ولا وبر (خيام ولا بناء) فغسل الأرض حتى تركها كالزلقة (الصخرة الملساء أو المرآة) . ويقال للأرض. أنبتي ثمرتك وردي بركتك، فأكلت العصابة (الجماعة) من الرمانة واستظلت بقحفها (قشرتها)، وبورك في الماشية حتى (م): إن لبن الناقة أو البقرة أو الشاة ليكفي الجماعة من الناس.

وتقع الأمنة في الأرض، حتى ترتع الأُسْد والإبل والنمار والبقر والذئاب والغنم وتلعب الصبيان بالحيات، ولا يبقى إلا الإسلام والسجدة لديهم خيرٌ من الدنيا وما فيها .

الأمارة الخامسة:

دابة الأرض ويعود الناس إلى الفساد فتكلم السباعُ الإنس، والرجل عَذَبةُ سوطه وشراك نعله بل فخذه بما فعل أهله من بعده (ت حسن) ويلجؤون إلى تتبع العورات وإحصاء الخطيئات.

فتخرج دابة الأرض على صدع الصفا أو من المروة أو من شعب أجياد بمكة في ليلة جَمْعٍ، والناس سائرون إلى منى (أحمد ت هـ) ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام لا يدركها طالب ولا يعجزها هارب. قال تعالى: ﴿**وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون**﴾.

صفتها:

لها وجه إنسان وجسمها جسم حيوان طولها ستون ذراعاً، فيها من كل لون، ما بين قرنيها فرسخ للراكب ،لها قوائم وهي ذات وبر وريش، وقيل: إنها الجسّاسة التي ذكرت في قصة تميم الداري (التي رواها الإمام مسلم) واستقبلته لتوصله إلى الدجال والله أعلم.

سبب خروجها:

تدمغ جبهةَ المؤمن بالخاتم أنه مؤمن فيبيض وجهه ويبقى كذلك أبد الدهر، وتدمغ جبهة الكافر أنه كافر فيسودُّ وجهه فيبقى كذلك أبد الدهر، وربما رآها بعض المنافقين فلجأ إلى الصلاة، فتقول له الآن تلوذ مني بالصلاة فتدمغه.

الأمارة السادسة:

طلوع الشمس من مغربها ثلاثةِ أيام، وقد اختلف في مرتبتها بين الأمارات، قال تعالى: ﴿**يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا**﴾ وأجمع المفسرون أو جمهورُهم على أنها طلوع الشمس من مغربها.

وكل من لم يكن إيمانه متحققاً عند طلوعها من مغربها لم ينفعه تجديد الإيمان، والناس وقتها طوائف (من الدر المنثور للسيوطي):

الأولى: مؤمن مقيم على المعاصي لم يكسب في إيمانه خيراً، فهذا ينفعه الإيمان السابق المجرد عن الأعمال لأصل النجاة فلا يخلد في النار وإن دخلها بذنوبه. قال صاحب الجوهرة:

وواجب تعذيب بعض ارتكب كبيرة ثم الخلود مجتنب

الثاني: المؤمن التائب عن المعاصي الكاسب في إيمانه خيراً ما استطاع، فهذا ينفعه إيمانه السابق لأجل نجاته ، وتنفعه أعماله السابقة الصالحة لدرجاته، وينفعه إيمانه ذلك اليوم، وينفعه ما يفعله بعد ذلك من الحسنات.

الثالث: المؤمن المخلّط فهذا ينفعه إيمانه السابق لأصل نجاته، وينفعه ما قدم من الحسنات لدرجاته، وينفعه إيمانه اللاحق ولكن لا تنفعه حينئذ التوبة لأنه مخلط.

وفي رواية الشيخين « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها » .

وعند الإمام أحمد وغيره « **لا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من مغربها** » .

ويبقى التكليف سارياً على الأمة لا ينقطع، والله عز وجل أعلم.

الأمارة السابعة: هدم الكعبة

وهو المصرح به في أكثر من حديثٍ صريحٍ صحيح (ق ،): فعنهﷺ « **يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة (ق): يهدمها حجرا حجرا يطرحونها في البحر** » . (أحمد): « **يجردها من حليها وكسوتها** »

وذو السويقتين أسود، أحمر الساقين، أزرق العينين، أفطس الأنف، كبير البطن، أصلع الرأس، في يده اعوجاج، متباعد الفخذين.

ولا يُهدَم هذا البيت إلا بعد أن يستحله أهله فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب (أحمد)، وقد استحله جيش يزيد بن معاوية، ثم الحجاج زمن عبد الملك فسلط الله عليه القرامطة فقتلوا من المسلمين في المطاف مالا يحصى، وقلعوا الحجر ونقلوه لبلادهم، وهذا عقوبة استحلاله، ثم أعيد إلى مكانه بعد ذلك.

ثم تكون آخر مدينة خراباً المدينة المنورة (ت حسن) بعد أن كان الدين يأرز (ينحسر) إليها في الزمن الماضي.

لذلك ورد في الحديث « **حجوا قبل أن لا تحجوا فوالذي خلق الجنة وبرأ النَسَمَة ليرفعن هذا البيت من بين أظهركم حتى لا يدري أحدكم أين مكانه بالأمس** » .

وعِند حاٍ وهب « **حجوا قبل أن لا تحجوا فكأني أنظر إلى حبشي أفدع**[1] **بيده معول يهدمها حجرا حجرا** » .

وعند (هب) « **حجوا قبل أن لا تحجوا تقعد أعرابها على أذناب أوديتها فلا يصل إلى الحج أحد** »[1] .

وعند بز وطب في الكبير وحب وحا: « **استمتعوا بهذا البيت فقد هدم مرتين ويرفع في الثالثة**» .

الأمارة الثامنة: رفع القرآن وهو قوله ﷺ:

(جه) و(حا) و(هب) « **يدرس الإسلام، كما يدرس وشي الثوب حتى لا يدرى ما صيام ولا صلاة ولانسك ولا صدقه، ويُسْرَى على كتاب الله في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية** » .

فيرفع وله دويٌّ كدوي النحل فيصبح الناس وقد نسوه ويقول: ﴿**يا رب إن الناس اتخذوني وراءهم ظِهرياً**﴾ .

وقد نقل غير واحد من العلماء أنه يرفع أولاً من السطور (المصاحف) ثم يرفع من الصدور. متعنا الله بحفظه والعمل به وعافانا من نسيانه.

الأمارة التاسعة: الدخان:

قال تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ .

قال المفسرون قبل قيام الساعة يدخل في أسماع الكفار والمنافقين ويعتري المؤمن كهيئة الزكام، وقد ذكرت هذه الأمارة في صحيح مسلم من الأمارات العشر. وعند (ت هـ) أنه يمكث في الأرض أربعين يوماً، يملأ ما بين المشرق والمغرب.

وقد قيل إنه الجوع الذي أصاب كفار مكة عندما دعى عليهم رسول الله ﷺ: « **اللهم سبعاً كسبع يوسف** » (ق ت) فكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى كهيئة الدخان من الجهد حتى دعا ربه فكشف عنهم ثم عادوا لعصيانه فانتقم منهم يوم بدر لذا ورد في (ق). عن سيدنا ابن مسعود « **خمس قد مضين الدخان واللزم (بدر) والروم والبطشة يوم بدر والقمر** » . وقد عارضه حديث سيدنا علي (عبد الرزاق وأبو حاتم): « **آية الدخان لم تمض بعد** » والله أعلم.

---

[1] في يده اعوجاج أو يمشي على ظهور قدميه.

[1] هذه الأحاديث ضعيفة الإسناد، ولكن الواقع صححها فهي وإن كانت ضعيفة من حيث الرواية إلا أنها صحيحة من حيث تحققها في عصرنا، ومع ذلك تبقى قواعد العمل بالأحاديث الضعيفة قائمة وهي أنها لاتنسب إلى رسول الله قولاً بل تنسب بتضعيف صيغة الرواية: ، مع تبيان ضعف الرواية.ﷺروي - ورد عن رسول الله

ولعله بعدها تجيء الريح الباردة من قبل الشام (م أحمد) فلا تُبقي على وجه الأرض أحداً في قلبه مثقال ذرة من الإيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدا دخل في كبدِ جبل لدخلت عليه حتى تقبضه فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فيتمثل لهم الشيطان فيقولون ما تأمرنا ؟. فيأمرهم بعبادة الأوثان ويتهارجون تهارج الحمر حتى لا يقال في الأرض: الله الله، فعليهم تقوم الساعة: نعوذ بالله أن نكون معهم.

الأمارة العاشرة

خروج النار من قعر عدن وحضرموت ومن المشرق إلى المغرب إلى أرض الشام، ولعله معها تكون الخسوف الثلاثة خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب. وهذه النار تسير معهم إذا ساروا وتقيل إذا قالوا. وغيرها مما ذكرته كتب الحديث.

ويستدعي الحديث عن اليوم الآخر الحديث عن عذاب القبر ونعيمه: فسؤال القبر حق على كل مكلف، إلا ما استثني كالأنبياء والشهداء والصديقين والمرابطين والمطعونين ومن مات بداء البطن وليلة الجمعة أو يومها، والملازم لقراءة سورة تبارك (الملك) كل ليلة، أو يسألون (على الراجح) سؤالا خفيفا إلا الأنبياء وشهداء المعركة فلا يسألون، وذلك بعد الدفن، فيعيد الله الروح إلى جميع البدن، ويسأل من قبل منكر ونكير بلغته التي يعرفها على الصحيح.

وعذاب القبر ونعيمه حق وهما للبدن والروح جميعاً: قال صاحب الجوهرة:

سؤالنا ثم عذاب القبر نعيمه واجب كبعث الحشر

وقد يعاد الجسم بالتحقيق عن عدم وقيل عن تفريق

محضين لكن ذا الخلافُ خصّا بالأنبيا ومن عليهم نُصّا

وفي إعادة العرض قولان ورجحت إعادة الأعيان

وفي الزمن قولان والحساب حق وما في حق ارتياب

بعد انتهاء الأمارات العشرة السابقة تكون الساعة كالحامل المتم

لا يعلم أهلها متى تفجؤهم بوليدها.

يوم القيامة:

فإذا كان يوم القيامة نفخ سيدنا إسرافيل في الصور (وهو قرن فيه ثقوبٌ بعدد الأرواح) فيصعق (يموت ويفنى) من في السموات والأرض إلا من شاء الله تعالى وهم: قال صاحب الجوهرة:

وفي فنا الروح لدى النفخ اختلفْ واستظهر السبكي بقاها اللّذ عرف

وكل شيء هالك قد خصصوا عمومه فاطلب لما قد لخصوا

وهذا التخصيص منه:

- الروح: وهي جسم لطيف مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأخضر. قال صاحب الجوهرة:

ولاتخض في الروح إذ ماوردا نص عن الشارع لكن وجدا

لمالك هي صورة كالجسد فحسبك النص بهذا السند

- وعَجْب الذنَب: وهو عظم كالخردلة في آخر سلسلة الظهر في العصعص. (على القول ببقائه). قال صاحب الجوهرة:

عجب الذنب كالروح لكن صححا المزني للبلى ووضحا

- وأجساد الأنبياء والشهداء، إذ أنهم أحياء في البرزخ من الجنات.

- والعرش والكرسي، والقلم واللوح.

- والجنة والنار والحور العين.

- رؤساء الملائكة الأربعة.

وهذا كله من التخصيص المذكور في آية ﴿إلا من شاء الله﴾.

ثم إذا مضى أربعون عاماً أرسل الله مطراً من السماء كمني الرجال أربعين يوماً فتنبت الأجسام كنبات البقل من عَجْب الذنب، ثم ينفخ سيدنا إسرافيل النفخة الثانية فتعود الأرواح إلى أجسادها فيخرجون من الأجداث بأكفانهم ثم تتطاير عنهم فيقفون حفاة عراة.

وتنسف الجبال، كما قال مولانا: ﴿وإذا الجبال نسفت﴾ وينتظر الناس الحساب في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، وربما هوّن على المؤمن حتى يكون كأخف ركعتين صلاهما في الدنيا.

وتدنو الشمس من الرؤوس مقدار ميل المسافة فيأخذ الناس العرق إلى الكعبين أو الحقوين أو يلجمون كل بحسب عمله، ويستظل سبعة أصناف في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله.

ويسأم الناس من الموقف فيتمنون الخلاص ولو إلى النار، فيأتون سيدنا آدم فنوحاً فإبراهيم فموسى فعيسى عليهم الصلاة والسلام، وكلهم يعتذر عن الشفاعة ويذكر شيئاً يراه هو ذنباً،

فيحيلهم سيدنا عيسى إلى سيدنا محمد ﷺ، فيقول: أنا لها، أنا لها، وهي الشفاعة العظمى لفكاك الخلق من الموقف إلى الحساب، (وهي خاصة السيد الأعظم ﷺ)، وفي غيرها يشفع الأنبياء والمرسلون والملائكة (أولهم سيدنا جبريل) والصحابة والشهداء، والعلماء العاملون والأولياء وسائر الأخيار. قال صاحب الجوهرة:

وواجب شفاعة المشفع محمدٍ مقدَّماً لاتمنع

وغيره من مرتضى الأخيار يشفعْ كما قد جاء في الأخبار

فيسجد تحت العرش أسبوعاً ثم يُنادى: يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفّع وقل يسمع لك. فيقول:

ربِّ لا أسألك نفسي ولا فاطمة ابنتي، ولكن أسألك أمتي. (فجزاه الله عنا خير الجزاء).

ومما يجب أن نعتقده أن لسيدنا رسولِ الله شفاعاتٍ كثيرةً أوصلها

ابن قيم الجوزية إلى عشرين شفاعة، منها ما ذكرناه وهو أعظمها، ومنها:

- شفاعته ﷺ في إدخال قومٍ الجنة بغير حساب.
- وشفاعته ﷺ في عدم دخول قوم النار بعد استحقاقهم لها.
- وشفاعته ﷺ في إخراج الموحدين من النار.
- وشفاعته ﷺ في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾، فصلى الله تعالى عليه كما لا نهاية لكمال الله وعدد كمال رسول الله ﷺ.

فيوضع **الميزان** وكلُّ كفة طباقُ السموات والأرض، وتوزن كتب الأعمال، فتثقّل موازين أناس، ويأخذون كتبهم باليمين، وتخف موازين آخرين ويؤتون كتبهم بشمالهم أو من وراء ظهورهم لمن أبى. قال صاحب الجوهرة:

وواجبٌ أخذ العباد الصحفا كمـا من القرآن نصاً عرفا

ومثـلُ هـذا الوزن والميزانُ فتوزن الكُتْب أو الأعيان

ثم يمّر الناس على **الصراط** وهو جسر على جهنم، منهم من يجوزه كالبرق الخاطف أو الريح المرسلة أو الفارس أو الراجل سعيا أو مشيا أو حبوا، ومنهم من يُخدَش أو يقع، ومنهم من يراه واسعا أو ضيقا حسب عمله. قال صاحب الجوهرة:

كذا الصراط فالعباد مختلفْ مرورهم فسالم ومُنْتَلِفْ

وأما الكافرون فمخلَّدون في النار، وأما عصاة المؤمنين فمن لم يعفُ الله عنهم يدخله النار على حسب غدراته في الدنيا ولكنهم لايخلدون في النار، فيخرجهم الله تعالى ويدخلهم الجنة.

وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم: أما أهل النار الذين هم أهلها (أي: الكفار بأنواعهم) فإنهم لا يموتون فيها ولا يُحْيَوْن، ولكنْ ناسٌ (أي مسلمون) أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال: بخطاياهم – فأماتتهم إماتة حتى إذا كانوا فحما أذن بالشفاعة فجيء بهم، ضبائر ضبائر (جماعات بعد جماعات) فبُثوا على أنهار الجنة. ثم قيل: ياأهل الجنة أفيضوا عليهم (أي: من نهر الحياة) فينبتون نبات الحبّة تكون في حميل السيل).

يقول الامام النووي رحمه الله تعالى:

والظاهر – والله أعلم – من معنى هذا الحديث أن الكفار الذين هم أهل النار والمستحقون للخلود لا يموتون فيها ولا يحيون حياة ينتفعون بها ويستريحون كما قال تعالى فيهم ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابهم﴾ وكما قال تعالى ﴿لا يموت فيها ولا يحيى﴾.

ثم قال رضي الله عنه: وأما قوله صلى الله عليه وسلم ولكنْ ناس أصابتهم النار بذنوبهم . . . الى آخره) فمعناه: أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله تعالى إماتة بعد أن يعذبوا المدة التي أرادها الله تعالى. وهذه اماتة حقيقية يذهب معها الاحساس، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم ثم يميتهم، ثم يكونون محبوسين في النار من غير احساس فحما، فيحملون ضبائر ضبائر كما تحمل الأمتعة ويلقون على أنهار الجنة، فيصب عليهم ماء الحياة فيحيون وينبتون (تنبت أجسادهم إنبات الحبة في حميل السيل: في سرعة نباتها وضعفها، فتخرج لضعفها صفراء ملتوية ثم تشتد قوتها بعد ذلك، ويصيرون إلى منازلهم (اي في الجنة) وتكمل أحوالهم، ثم قال: فهذا هو الظاهر من لفظ الحديث ومعناه. ا هـ.

ثم يؤتى بالموت كأنه كبش أملح حتى يوقف على السور بين الجنة والنار ثم يقال: ياأهل الجنة وياأهل النار هل تعرفون هذا ؟. فيقولون: نعم هذا الموت، فيضجع ويذبح.

وحكى القاضي عياض وجهين في معنى الحديث السابق:اهـ

أحدهما: إماتة حقيقية كما قال الإمام النووي.

والثاني: ليست بموتٍ حقيقي ولكن يغيب عنهم إحساسهم بالآلام، أي بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: فأماتتهم إماتة – أي نوعا من الاماتة غير معهودة، ويجوز أن تكون آلامهم أخف.

وأمّا أهل الأعراف وهم مَنْ تساوت حسناتهم وسيئاتهم، ويكونون بين الجنة والنار فيدخلون الجنة بفضل الله تعالى. قال صاحب الجوهرة:

والنارُ حقٌ أوجدتْ كالجنّه فلا تَملْ لجاحد ذي جنّه

دارا خلودٍ للسعيد والشقي معذَّبٌ مُنَعَّمُ مهما بقي

حوض سيدنا رسول الله ﷺ:

ولكل نبيٍ حوض ترده أمته، وحوض سيدنا محمد ﷺ أعظمها طوله وعرضُه مسيرة شهر في شهر، ماؤه أبيضٍ من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكوؤسه أكثر من نجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ أبدا (اللهم أكرمنا بالشرب منه بيد حبيبك ﷺ).

والصحيح أنّ الحوض غيرُ الكوثر لأنه في الجنة، والحوض قبلها.

وأحوال الشاربين منه مختلفة، فمنهم من يشرب لدفع العطش، ومنهم من يشرب للتلذذ، ومنهم من يشرب لتعجيل المسرّة، ويطرد الكافر عنه حرمانا، ويُرَدُّ عنه العاصي عقوبة له ثم يشرب منه قبل دخوله النار فيكون أمانا لهم من أن تحرق النار أجوافهم وأن يدركهم العطش (ذكره صاحب فتح العلام رحمه الله تعالى). قال صاحب الجوهرة:

إيماننا بحـــوض خير الرســـل حَتْمٌ كما قد جاءنـا في النقل

يَنال شـــرباً منـــه أقوام وَفَوا بعهدهم وقل يزاد مـن طـــغوا

وواجبٌ تعذيب بعض ارتكب كبيـــرةٌ ثم الخـلود مـجتنب

ثم يدخل أهل الجنة الجنة من أبوابها الثمانية بعضها أو جميعها، والله على كل شيء قدير، ولكلٍ منزلته فيها، ودخول الجنة بالفضل الإلهي، والمنزلة فيها تكون بأعمال العبد في الدنيا.

وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين من نحو حورٍ وولدان، وفاكهة كثيرة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، ورضوان من الله أكبر.

ويرى أهل الجنة ربَّ العزة ﷻ، منهم من يراه مرة، ومنهم بكرة وعشياً، يقول عز وجل: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربِّها ناظره﴾.

كما وردت السنة المتواترة بها في الآخرة، كما في البخاري ومسلم أن الناس قالوا:

– يا رسول الله هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟

قال: هل تضارّون في القمر ليلةَ البدر؟ قالوا:لا.

قال: هل تضارّون في الشمس ليس دونها سحاب. قالوا: لا.

قال: فإنكم ترونه كذلك.

وفي الصحيحين « **إنكم سترون ربّكم كما ترون القمر البدر لا تضامون (لا يلحقكم برؤيته ضيم) في رؤيته** » .

رموز الأحاديث النبوية الشريفة:

أحمد : الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه في مسنده.

ق : رواه البخاري ومسلم أي متفق عليه.

خ : رواه الإمام البخاري في صحيحه.

م : رواه الإمام مسلم في صحيحه.

د : رواه الإمام أبو دواد في سنده.

ت : رواه الإمام الترمذي في سنده.

ن : رواه الإمام النسائي في سنده.

هـ : رواه الإمام ابن ماجه في سنده.

حب : رواه الإمام ابن حبان في صحيحه.

حا : رواه الإمام الحاكم في صحيحه.

أبو نعيم : رواه الإمام أبو نعيم في الحلية (حلية الأولياء).

طب : رواه الإمام الطبراني في معجمه الكبير.

هب : رواه الإمام البيهقي.

بز : رواه الإمام البزار.

الركن الايماني السادس

الإيمان بالقضاء والقدر

من أركان العقيدة الإسلامية الإيمانُ بالقضاء والقدر خيره وشره، فعن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

« **الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره** » . رواه الإمام مسلم وأبو داودَ والترمذي والنَسائي.

قال صاحب الجوهرة:

وواجب إيماننا بالقدر وبالقضا كما أتى في الخبر

وعرفه السادة الأشاعرة رضي الله عنهم فقالوا:

القضاء: إرادة الله تعالى الأشياء في الأزل على ما هي عليه في علمه تعالى.

والقدر: إيجاد الله تعالى الأشياء على قدر مخصوص ووجه معين أراده الله تعالى على وفق علمه.

وعكس السادة الماتريدية رضي الله عنهم التعريفين، أي أن القضاء هو الخلق والإيجاد، والقدر هو التقدير، فإذا أردنا الجمع بينهما كان: إرادة الله إيجادَ الأشياء على وجه مخصوص ثم إيجادها فعلاً على وفق الإرادة والعلم.

وعلى كلا المعنيين فهو: الرضا بهما من الله تعالى، فيعتقد العبد أن ما قدره الله في الأزل من خير وشر لا بد من وقوعه، وأن مالم يقدِرْه الله سبحانه يستحيل وقوعه.

ومعنى خير القدر وشرّه: أن الإيمان والطاعة وجميع الأعمال

الصالحة هي من خير القدر، وأن الكفر والمعصية والمخالفة للأوامر وجميع أفعال المعاصي من شرّ القدر، نسأله تعالى الخير كله.

والخير والشر كلاهما بقدر الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿قل كلٌّ من عند الله﴾. وإنما تركت نسبة الشرّ إليه تعالى على سبيل الأدب ﴿ما أصابك من حسنةٍ فمن الله ومَا أصابك من سيئة فمن نفسك﴾. والكل يرجع - في الحقيقة - إليه تعالى فهو القائل: ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾.

وفي القدر ربط بين السبب والمسبّب، فليس من الإيمان بالقدر اعتقاد بأن ما علم الله وجوده من المسبَّبات لابد من وجوده ولو منقطعاً عن أسبابه كما يزعم الجهلاء أنه: « إذا كانت السعادة والشقاوة والرزق والحرمان والنصر والهزيمة والصحة والمرض والحياة والموت، ومحاولة الوصول إلى المقاصد من طرقها التي جرت بها السنن الكونية، إذا لا بد من وقوع المقدر في وقته المحدد له سواء أوقعت أسبابه أم لم تقع » ، إن من زعم هذا فقد فكك معنى القدر فآمن ببعضه وكفر ببعضه، ذلك أن الله تعالى كما علم الأشياء علم أسبابها ونتائجَها وسائر أحوالها وظروفها، وربط بعضها ببعض في علمه تعالى، ومجموع ذلك كله القدر.

وإذا علم الله أمراً يسَّر له أسبابه الموصلة إليه في علمه حتى يتم على الوجه الذي علمه، وقد نبَّه سيدنا رسول الله ﷺ على ذلك حينما سأله الرجل المزني أو الجهني فقال: يا رسول الله فيم العمل؟

فقال ﷺ: « **إن أهل الجنة ييسرّون لعمل أهل الجنة، وإن أهل النار ييسرّون لعمل أهل النار** » .

فلو وقعت المسبَّبات دون أسبابها التي ربطها بها في علمه لكان بعض القدر واقعاً وبعضه غير واقع وهذا جهل كبير، ولو كانت عقيدة القدر هي كما يزعمها هؤلاء الجهلاء لكانت مَدْعَاة قعود وكسل،

وباعثة جُبْن وخَوَر، بل لكانت معول هدم للشرائع والقوانين، وأداة لتقويض نظام العالم وفنائه العاجل، وإذاً لصدق عليها قول بعض الملحدين: إنها هي إحدى عوامل ضعف المسلمين وخمولهم.

وكيف تكون كذلك، وهذا كتاب الله يُقِرُّ أنّ النصر مع الصبر، وأنّ الرزق مع السعي، وأنّ الأمن في إقامة الحدود، وأنّ السعادة مرتبطةٌ بالعمل لها، يقول تعالى في ذلك كله:

﴿ فإن يكن منكم مئةٌ صابرة يغلبوا مئتين ﴾ .

﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ .

﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ .

إلى غير ذلك من النصوص الدالة على وضع الأسباب لمقاصدها، ونوط المقاصد بأسبابها، وهذه سنة سيدنا رسول الله ﷺ، قولية وعملية، كلها ناطقة بإتيان البيوت من أبوابها، وأخذها من أسبابها:

فقد لبس الدروع في الحروب؛

وحفر الخنادق؛

واستعمل العيون والحراس؛

واستعان بالأصحاب؛

وتداوى وأمر بالتداوي؛

وسعى وأمر بالسعي؛

وكان يدّخر لقوت أهله ما يكفيهم عاماً .

وأمر بالاقتصاد وقال: « **إنك أن تذر ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عالة يتكففون الناس** » .

ومع هذه الأدلة القاطعة يأتي قوم في زمن سيدنا عبد الله بن عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما كذبوا بالقدر، كان أولهم معبد الجهني البصْري الذي أضلّه الله على علم، فكان جزاؤه أن قتله الخليفة عبد الملك بن مروان وصلبه بدمشق سنة /٨٠/ هـ . واشتهرت طائفته باسم (القدرية) حيث نفو القدر عن مولانا عز وجل وأثبتوه لأنفسهم فقالوا:

« إنّ الإنسان هو الذي يقدّر أعمال نفسه بعلمه ويتوجه إليها بإرادته، وينفذها بقدرته، والله تعالى لا يعلمها إلا بعد وقوعها فضلاً عن أن يكون لإرادته أو لقدرته مدخل في إحداثها » وهؤلاء كفار بلا خلاف.

ثم نشأت بعدهم فرقتان أرادتا تنزيه المولى عز وجل عمّا لا يليق به، الأولى: وهي المعتزلة أرادت نفي شبهة الظلم عن الله تعالى في مجازاته للإنسان ماليس مستقلاً بإحداثه.

والثانية: وهي الجبرية ـ أرادت نفي الشريك لله تعالى.

لكن هذا التنزيه أوقعهم في نتيجته بالضلال البعيد، إذ أن المعتزلة قالوا:

– إن الله سبحانه قدّر الأشياء كلها أزلاً، أي أحاط علماً بما سيقع منها ومالم يقع، سواء منها ما كان من أفعاله، أو من أفعال العباد خيرها أو شرّها، ثم إنه تعالى يريد أفعال نفسه ويوجدها على وفق علمه.

أما أفعال العباد الاختيارية فلا يريد وقوعها، ولا عدم وقوعها، ولا يخلق شيئاً منها بقدرته سواء في ذلك خيرها وشرّها، بل فوّض الأمر فيها إلى العباد يفعلون منها ما يشاؤون بقدرتهم المستقلة، وهو يعلم ما سيفعلونه من خير أو شر، كما يعلم الحاكم بأخبار المؤامرات وتدبير الجنايات قبل وقوعها من غير أن يكون له يدٌ في تحريض الجناة عليها ولا في تنفيذها.

أما الجبرية: أصحاب جهم بن صفوان الترمذي فقالوا:

– إن الله كما قدّر أعمال العبد في علمه أرادها بمشيئته، وأنفذها بقدرته وحده، فلا قدرة للعبد ولا إرادة، وأن التصرف والاختيار الذي يجده المرء في نفسه في بعض أفعاله هو أمر ظاهري فقطٍ، وهو في الواقع مجبور، وليس له من الأمر شيء، بل الله تعالى يجري على يديه الخير والشر قهراً عنه.

وكلا الفريقين ـ المعتزلة والجبرية وقعا في الضلال، فوقع الأول بالفسق، ووقع الثاني بالكفر، وقد ذكرت كتب التوحيد وتاريخ العقائد سبب ذلك، وقمت بجمع مختصر في ذلك قيد الطبع إن قيّض الله ذلك.

أما أهل السنة والجماعة ـ وهم السادة الأشاعرة والماتريدية ـ فقد حققوا ووقفوا موقفاً وسطاً قائلين:

– لا تفويض صرف يسلب عن الربّ اختياره لأفعال العباد، ولا جبر صرف يسلب عن العبد اختياره لفعله، بل أمرٌ جامع بين الأمرين:

فالعبد ذو إرادة يتوجه بها إلى الفعل، وذو قدرة يباشره بها،والرب جل وعلا يريد منه ذلك الفعل ويباشره بقدرته أيضاً، لكن مع التفاوت في نوع المباشرة، فقدرة الرب تباشره إحداثاً وقدرة العبد تباشره تناولاً من يد القدرة الإلهية، غير أن إحداث الربِ له ومناولته لقدرة العبد مربوط بشيء من قِبَل العبد، وهو عزمه المصمّم على الفعل، بل لو فرِضَ انفكاكهما صار الفعل غير اختياري، وإذ ذاك لا ينسب إلى العبد ولا يناط به ثوابه ولا عقابه، وهذا معنى قولهم:

« إن الله هو الخالق والعبد كاسب » .

يعنون أنه متسبب بعزمه في أن يخلق الله الفعل ويجريه على يديه

وهل هذا العزم من عمل العبد أم من عمل الرب؟ أي:

هل العبد هو الذي يوجّه إرادة نفسه مختاراً في هذا التوجيه؟ قال الماتريدية: نعم.

أم أن الله هو الذي يوجّه إرادة العبد إلى الشيء أو ضدّه، ولا يملك العبد لذلك نقضاً ولا تحويلاً؟ قال الأشاعرة: نعم. وهذا معنى قولهم إن الجبر في القلب. لأن القضاء والقدر مقرّه الإيمان، والإيمان مقرّه في القلب، وجعلوا الكسب في الظاهر، لأن الإسلام مقرّه الأعمال والجوارح وهو في الظاهر.

وقول الأشاعرة يؤيده شواهد كثيرة في كتاب الله تعالى تصور لنا خلق الهدى والضلالة في الناس بمنزلة خلق الموت والحياة فيهم، أي أن الله تعالى يخلق الأسباب والمُسَبَّبات ـ كما تقدم ـ من بدايتها إلى نهايتها في أفعالنا الاختيارية، والمرء قابل لها، منفعل بها بإستعداده.

أما خلق الهدى والضلالة في العقائد والأعمال فهو كثير، ولا كلام فيه، إنما الكلام في أسباب ذلك ومقدماته؛ وهي تلك الحركات النفسية في مظاهرها الثلاثة:

((وجدان ـ فكر ـ إرادة)) .

التي تنتهي باعتناق الحق أو الباطل، وإتيان الخير أو الشرّ، ما هي إلا أَزِمَّةٌ في يد القدرة الإلهية تقودنا إلى ما تريد:

أما الوجدان: وهو شعور الميل إلى الفعل أو كراهيته فيقول ﷻ

﴿ولكنّ الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ .

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حَرَجاً كأنما يصعّد في السماء﴾ .

﴿كذلك زينَّا لكلّ أمةٍ عملهم﴾ .

وأما الفكر: الذي به إدراك الحقائق على وجهها، فيقول فيه رب العزة:

﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ .

وأنه تعالى ختم على قلوب قوم وأسماعهم وجعل على أبصارهم غشاوة.

وأما الإرادة: التي تَحْفِزُ على العمل مباشرة ففيها يقول عزّ من قائل:

﴿ما كان لهم الخِيَرةُ﴾ و﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ .

فهي إرادة مقيدة بإرادته سبحانه.

هذا هو مذهب الأشاعرة في هذه المسألة التي نشأ فيها هذا العلم كله حين ضغط المعتزلة في عصر من العصور على أهل السنة ليجبروهم على القول بأقوالهم، رغم أن السلف من الصحابة والتابعين سكتوا عن ذلك كله، فعلموا أن الله قدّر كما علموا أنه أمر، ونزّهوه تعالى أن يكون في قدرته عاجزاً، كما نزهّوه أن يكون في أمره عابثاً، هكذا كان سلفنا الصالح يعرفون الإيمان بالقضاء والقدر، وما أجدرنا أن نأخذ به.

ويستلزم الإيمان بالقدر العلمَ بصفات الله تعالى كسعة رحمته على العالمين وآثار قدرته وحكمته للمخلوقين ونفوذ قضائه فيهم وأن الحوادث مستندةٌ إلى الأسباب الإلهية وأن يعلم العبد أنّ الحذر لا يمنع القدر:

أخرج الإمام أبو داود وابن عساكر عن يحيى بن مرّه قال:

« كان سيدنا علي رضي الله عنه يخرج بالليل إلى المسجد يصلي تطوعاً فجئنا نحرسه، فلما فرغ أتانا فقال:

ما يحبسكم؟

فقلنا : نحرسك.

فقال: أمن أهل السماء تحرسون أم من أهل الأرض؟

قلنا: بل من أهل الأرض.

قال: إنه لا يكون في الأرض شيء حتى يقضى في السماء، وليس من أحد إلا وقد وكل به ملكاه يدفعان عنه، ويكلآنه حتى يجيء قدره، فإذا جاء قدره خليا بينه وبين قدره، وإن عليَّ من الله جُنَّةً حصينة، فإذا جاء أجلي كشفت عني، وإنه لا يجد طعم الإيمان عبد حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه» .

فهذا معنى قولهم « لا يغني حذرٌ عن قدر » فيجب أن يعتقد أنه لا تطرف في العالم عين، ولا تهب نسمة هواء ولا يحدث فيه حادث صغيراً كان أو كبيراً إلا بعلم الله تعالى، وإرادته وقدرته، وأن يمتزج هذا بدمه، ويستسلم لله ويخضع له ويعترف بأنه ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن.

قام شيخ إلى سيدنا علي رضي الله عنه فقال له:

– أخبرنا عن سيرنا إلى الشام ـ بعد صفين ـ أكان بقضاء الله وقدره؟

فقال سيدنا علي: والذي خلق الجنة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئاً، ولا هبطنا وادياً إلا بقضاء الله وقدره.

فقال الشيخ: فعند الله احتسب عنائي، ما أرى أن لي من الأجر شيئاً .

فقال سيدنا علي: مَهْ أيها الشيخ، لقد عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيء من أحوالكم مكرهين ولا مضطرين.

فقال الشيخ: وكيف القضاء والقدر ساقنا .

فقال سيدنا علي: ويحك لعلك ظننت قضاءً لازماً وقدراً محتماً، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والأمر والنهي، ولم تأت لائمةٌ من الله لمذنب ولا مَحْمَدَةٌ لمحسن، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ولا المسيء أولى بالذم من المحسن، تلك مقالة عُبَّاد الأوثان، وجنود الشيطان، وشهود الزور أهل العمى عن الصواب، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها . . . ثم قال:

إن الله أمر تخييراً، ونهى تحذيراً، وكلف تيسيراً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولم يُطَعْ كارهاً، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

فقال الشيخ: فما القضاء والقدر الذي ما سرنا إلا به؟

فقال أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه وأرضاه.

هو الأمر من الله تعالى والحكم ثم تلا قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾.

فنهض الشيخ مسروراً.

وفي البخاري والموطأ: خرج سيدنا عمر مع سيدنا أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما مع الجند إلى الشام، فأخبر سيدنا عمر أن الطاعون في الشام، فاستشار الصحابة، فاختلفوا في أمرهم، فعزم على عدم دخول الشام، فقال له سيدنا أبو عبيدة: أفراراً من قدر الله؟ !

فقال سيدنا عمر رضي الله عنه: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟!! نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله.

وهنا تتهاوى شبهات الذين يحسبون أن العبد مجبور ظاهراً وباطناً، وخاصة إذا علمنا أن القضاء إنما هو تعلق علم الله تعالى بالأشياء أزلاً على سبيل الكشف على الصورة التي ستوجد عليها، وعلمه تعالى ليس بمُجْبِر، إنما هو كاشف، وحديث سيدنا عمر يعني أن الله تعالى كما قدّر الموت والحياة قدّر لكل منهما طَرِيقة، فحياتنا إن سلكنا سبيلها من قدره، وموتنا إن سلكنا سبيله فمن قدره، وما دام المرء في سعة من أمره وجب أن يسلك سبيل الحياة، وألا يُلقيَ بيده إلى التهلكة، فلو كان سيدنا عمر فهمَ القدر كما فهمه وحَرَّفه الجهلاء، لدخل قرية الطاعون وقال: « لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

نعم إن جد الجد وتعينت التضحية كما في الجهاد، وجب عدم الفرار من وجه الموت، وهنالك تكون عقيدة القدر من بواعث الصبر والثبات ثقة بأن الأجل لا يزيد بالإحجام ولا ينقص بالإقدام.

وقد رأيت بعض العلماء قسم القضاء قسمين: قضاء مبرم وقضاء معلَّق.

فالمبرم لا بد من وقوعه، والمعلق ما يُرَدُّ بالدعاء والصدقة وفعل الطاعات.

ومنهم من جعلهما قسماً واحداً.

فالعبد ينتقل دائماً من قدر الله إلى قدر الله تعالى، وهو أمام قضاء الله وقدره في أحوال أربعة:

قضاء الطاعات. وقضاء المعاصي. وقضاء النعم. وقضاء الشدائد:

١- فإن قضي للعبد الطاعة فعليه أن يستقبله (القضاء) بالجهد

والإخلاص حتى يكرمه الله تعالى بالتوفيق والهداية.

٢- وإذا قضيت عليه المعصية فعليه أن يستقبله (القضاء) بالتوبة والاستغفار والندامة من صميم الفؤاد.

٣- وإذا قضيت له النعمة فعليه أن يستقبله بالشكر والسخاء حتى يكرمه الله بالزيادة.

٤- وإذا قضيت عليه الشدّة فعليه أن يستقبله بالصبر حتى يعطيه الله الكرامة في الدنيا والآخرة.

وإذا أوجبنا على الإنسان الإيمان بالقدر فإنه لا يجوز لنا الاحتجاج به قبل وقوعه توصلاً إليه، بأنٍ قال شخص: قدّر الله عليّ الزنا مثلاً، وغرضه بذلك التوصل إلى الوقوع في الزنا، أو بعد الوقوع تخلصاً من الحد، فهذا افتراء على الله تعالى، وقد ورد أن سيدنا عمر رضي الله عنه أتي بشارب خمر، فسأله: لِمَ شربت الخمر؟

فقال: قدّر الله عليّ ذلك.

فجلده سيدنا عمر مئةً وعشرين جلدة، أربعون لشرب الخمر وثمانون لا فترائه على الله تعالى.

وأما الاحتجاج بالقدر بعد الوقوع لدفع اللوم فقط فلا بأس به، ففي الصحيحين والنسائي وأبي داود وابن ماجه، وللترمذي نحوه:

« أن روح سيدنا آدم التقت روح سيدنا موسى، فلام سيدنا

موسى سيدنا آدم لأنه سبب في إخراجه من الجنة، فقال سيدنا آدم لسيدنا موسى:

- يا موسى أنت الذي اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده، تلومني على أمر قدّره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين ألف سنة. فقال سيدنا النبي ﷺ: فحج آدم موسى. (أي غلبه بالحجة)» .

وهكذا يظهر للعبد بجلاء ووضوح أن ربَّ العزة يعلم ما فيه الخير والمنفعة لعباده جميعاً وهو يأمرهم به ولو كرهوا ذلك، وهو حين ينهاهم عن شيء يعلم ما فيه المضرّة وينهاهم عنه ولو أحبوه، فهو سبحانه

العليم الحكيم بما شرع لعباده، يقول تعالى:﴿كتب عليكم القتالُ وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرّلكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ .

يقول الأستاذ المحب الشيخ أسعد الصاغرجي في أحد كتبه النافعة وهو كتاب القضاء والقدر:

« فكل ما يبتلي به الله تعالى أحبابه وأولياءه وأصفياءه من أوامر ونواه ومكروهات ومصائب تصيبهم في أبدانهم وأموالهم وأولادهم، يخلق الله سبحانه وتعالى فيهم الرضا عنه ليوصلهم إلى سعادتهم من العاجل والآجل بتطهيرها من دنس المعاصي ورفعهم أعلى الدرجات»

كما قال ﷺ: « **ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بخطيئة** » .

وكقوله ﷺ: « **عجباً لأمر المؤمن كل أمرهِ خير، وليس ذلك إلا للمؤمن إن نالته سراء شكر فكان خيرا، وإن نالته ضرّاء صبر فكان خيرا له** » .

ولما كان المؤمن عاجزاً عن معرفة ما يراد به من خير أو شرّ في ما يستقبل من الأمور سَنَّ له رسول الله أن يستخير الله تعالى فيما اشتبه عليه فيه وجه الخير فهو العالم بعواقب الأمور جملة وتفصيلاً، فالاستخارة تصرف المؤمن وترده إلى العبودية المحضة وتوقفه على عظيم افتقاره إلى مدبر أموره سبحانه وتعالى وفي الحديث:« من سعادة ابن آدم استخارته الله تعالى، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضاه الله تعالى، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله عز وجل، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله تعالى عليه » .

قال الناظم رحمه الله تعالى:

وتجمع العقائد التي مضت شهادتا الإسلام حسبما ثبت
فكن لها معتقداً وذاكرا لكي ترى بها مقاما فاخرا
وأسأل المنّانَ ذا الجلالِ رُقيّنا لرتب الكمال
بجاه طه السيدّ البشيرِ وآلِهِ مناهل التطهير
صلى عليه ربنا وسلما والآل ما كلٌّ كتاب ختما

أحكام متفرقة في العقيدة

أحكام الردة:

يجب على كل مسلم حفظ إسلامه وصونه عما يفسده ويبطله ويقطعه. قال صاحب الجوهرة:

وحِفْظُ دين ثم نفس مالْ نَسَبْ ومثلها عقلٌ وعرضٌ قدْ وَجَبْ

وهو الردة التي هي أفحش الكفر وأغلظه حكماً، لأنها تحبط العمل إن اتصلت بالموت، وتحبط ثواب الأعمال إن لم تتصل به، فكأن المرتد لم يعمل شيئاً، يقول عز وجل:

﴿**من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذابٌ عظيمٌ**﴾ (النحل ١٠٦).

﴿**ومن يَرتَدِدْ منكم عن دينه فيمتْ وهُو كافرٌ، فأولئك حبطتْ أعمالُهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ (البقرة ٢١٧).

وقد كثر في هذا الزمنِ التساهل في الكلامِ حتى إنه يخرج من بعضهم ألفاظ تخرجهم عن دين الإسلام ولا يرون ذلك ذنبا فضلاً عن كونه كفرا.

ولما كان للعبد اعتقاد وقول وفعل انقسمت الردة إلى هذه الأقسام الثلاثة وتفرعت عنها الفروع الكثيرة، ومالا يدرك كله لا يترك جله،فينبغي ذكر الأبواب الرئيسة منها:

أولها: الردة بالاعتقادات كأن:

- شك في وجود الله تعالى أو في مخالفته للحوادث.
- أو يشك في سيدنا محمد ﷺ هل هو رسول الله أم لا؟
- أو يشك بالقرآن هل هو من عند الله أم من عند سيدنا محمدﷺ؟

– أو يشك في وجود اليوم الآخر أو يشك في وجود الجنة أو النار في الآخرة.

– أو يشك في العقاب أو الثواب يوم القيامة.

– أو نحو ذلك مما هو مجمع عليه كالإسراء من المسجد الحرام ومعجزات سيدنا رسول الله وكرامات الأولياء.

– أو اعتقد فَقْدَ صفة من صفات الله تعالى الواجبة له إجماعاً كالعلم، أو نَسَبَ له صفة يجب تنزيهه عنها إجماعاً كالجسمية، أي أنه صرح بأنه جسم كالأجسام لصراحته في الحدوث والتركيب.

– أو حلل محرماً بإجماع الأئمة الأربعة معلوماً من الدين بالضرورة (أي الذي لا يحتاج في إثباته إلى دليل لأنه اشترك في معرفته العالم والعامي) كالزنا واللواط والقتل والسرقة والغصب..

– أو حرّم حلالاً كالبيع والنكاح.

– أو نفى مجمعاً عليه معلوماً من الدين بالضرورة كالصلوات الخمس أو سجدة منها والزكاة والصوم والحج والوضوء.

أو عزم على الكفر في المستقبل فإنه يكفر حالاً.

– أو أنكر رسالة واحد من الرسل المجمع على رسالته كالخمسة والعشرين المذكورين في القرآن، أو كذب رسولاً أو نقّصه أو صَغّر اسمه بقصد تحقيره، أو جوّزَ نُبوّة أحد بعد سيدنا محمد ﷺ، أو ادّعى أنه يوحى إليه وإن لم يدّع النبوة.

– أو جحد آية من القرآن أو زاد حرفاً فيه معتقداً أنه منه.

– أو أنكر صحبة مولانا وسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه لثبوت صحبته في القرآن، قال تعالى: ﴿إذ يقول لصاحبه لاتحزنْ إنّ الله معنا﴾.

أو ادعى أنه يدخل الجنة ويأكل من ثمارها وأنه يعانق الحور العين. أو اعتقد قِدَمَ العالم. فهذا كله ردة (كفر) بالإجماع. قال صاحب الجوهرة:

ومنْ لمعلومٍ ضرورةً جَحَدْ منْ ديننا يُقْتَلُ كُفراً ليسَ حَدْ
ومثلُ هذا منْ نفى لمجمَعِ أو استباحَ كالزنا فلْتَسمعِ

ثانيها : الردة بالأفعال :

كتمزيق المصحف مع قرينة الإهانة ، أو إلقائه في القاذورات ، وكتعليق الصليب على الصدر ، ووضع كل ما هو من شارات الكفر الخاصة مع قرينة التعظيم والاستحباب ما لم يكن عن إكراه أو مصلحة سياسية للدولة المسلمة .

أو كسجود لصنم أو شمس أو مخلوق آخر إلا لضرورة ، فإن دلت قرينة على عدم دلالة الفعل على الاستخفاف كسجود أسير في دار الحرب بحضرة كافر خشية منه فلا كفر .

أما إن ركع بقصد تعظيم المخلوق كتعظيم الله كَفَرَ ، فإن لم يقصد كان حراماً ، أما ما جرت به العادة من خفض الرأس إلى حد لا يصل إلى أقل الركوع فلا كفر به ولا حرمة ، لكنه مكروه .

ثالثها الردة بالأقوال : كأن :

يقول الشخص لمسلم يا كافر أو يا يهودي أو يا نصراني أو يا عديم الدين ، مريداً بذلك القول أن الذي عليه المخاطب من الدين كفر أو يهودية أو نصرانية أو ليس بدين، أما إذا أراد بقوله يا كافر : كفر النعمة فلا يكفر .

أو سَخِر باسم من أسمائه تعالى أو وَعْدِه بالجنة والثواب أو وعيده بالنار والعقاب .

أو كقول الشخص : لو أمرني الله بهذا لم أفعله ، أو لو صارت القبلة في جهة كذا ما صليت إليها، أو لو أعطاني الله الجنة ما دخلتها مستخفاً ومستهزئاً ومحقّراً أو مظهراً للعناد في الكل .

أو كقول الشخص لو آخذني الله (أي عاقبني) مع ما أنا فيه من المرض لظلمني .

أو قال لفعل ما : هذا حدث بغير تقدير الله .

أو قال : لو شهد عندي الملائكة والأنبياء أو جميع المسلمين بذلك ما قبلتهم .

أو قيل : قلّم أظافرك أو قص شاربك فإنه سنة ، فقال : لا أفعل وإن كان سنة بقصد الاستهزاء والاستَخفاف .

أو قال : لا أخاف يوم القيامة .

أو قال : لو كان فلان نبياً ما آمنت به .

أو قال : أنا بريءٌ من الله أو من الملائكة أو من النبي أو من القرآن أو من الشريعة أو من الإسلام أو شتم نبياً أو مَلَكاً .

أو قال : ما أصبت خيراً منذ صليت ، أو الصلاة لا تصلح لي استخفافاً بالصلاة ، أو الدراهم أو الذهب خير من الصلاة .

أو تمنى أن يحل الله ما حرم كالظلم والزنا والقتل .

كل هذه الأقوال يرتد صاحبها . والعياذ بالله تعالى . والمدار في كل ذلك يرجع إلى أنّ :

كل عقد في الضمير أو قول أو فعل يدل على استهانة أو استخفاف بالله تعالى أو كتبه أو رسله أو ملائكته أو شعائره أو أحكام دينه يرتد به صاحبه ، فليحذر المسلم من ذلك جهده . قال صاحب الجوهرة:

وحِفْظُ دين ثم نفس مالْ نَسَبْ ومثلها عقلٌ وعرضٌ قدْ وَجَبْ

والمتمكن من الشهادتين إن اخترمته المنية قبل النطق بهما من غير تراخٍ فهو مؤمن عند الله ، وإلا فهو كافر في الأحكام الدنيوية ، وهذا إن اتفق له عدم الإقرار من غير عذر ولا إباء .

فإن طُلب منه النطق بالشهادتين فأبى كفر في الدنيا والآخرة ، ولا ينفعه الإذعان بقلبه. ومن أقر بلسانه ولم يصدق بقلبه (كالمنافق) فهو مؤمن في الأحكام الدنيوية كافر عند الله [1] .

حكم المرتد :

اتفق أهل العلم من ساداتنا مذاهب الأئمة الأربعة ﷺ أن شرطا صحة الردة هما :

* العقل : وزاد الحنابلة والشافعية صحة ردة السكران المتعدّي بسكره
* الاختيار والطواعية .

فمن أتى مكفّراً وقامت القرائن على أنه غير معذور وأنه غير جاهل بأن هذا الشيء من المكفرات حكمناَ عليه بالكفر وأجرينا عليه أحكام الكافرين الأصليين إن لم يسبق له إعلان الإسلام ، فإن سبق وأعلن إسلامه أو كان من أسرة مسلمة أجرينا عليه أحكام المرتدين، وكلا الصنفين غير معذورين بكفرهم ، وهم من أهل النار في الدار الآخرة ، ومخلدون في العذاب بخلاف غيرهم من عصاة المؤمنين فقد تشملهم رحمة الله بالعفو والمغفرة كرماً منه وفضلاً إذا شاء ذلك :

﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ .

---

[1] انظر تفصيل هذه الأسطر الثلاثة الأخيرة في كتابي « نفحات منيرية في القضايا الإيمانية »

﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقْبَلَ من أحدهم مِلءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين** ﴾ .

فإذا ارتد العبد والعياذ بالله تعالى :

انتقض وضوؤه عند المالكية وتيممه عند الشافعية .

بطلت صلاته .

بطل صومه واعتكافه .

أما زكاة ماله فأوجب عليه الشافعية زكاة ماله قبل ردته ، ويصبح ماله فيئاً للمسلمين بعد ردته وتسقط زكاة ماله عند الحنفية ويقسم ماله بين ورثته وزوجته إذا لم تنقضِ عدتها عند الحنفية والمالكية .

بطل نكاحه قبل الدخول (وكذا بعده إن لم يعد للإسلام في وقت العدة عند الشافعية) ، وعند الحنفية تقع الفرقة بينه وبين زوجته من غير تنقيص عدد الطلقات ، وليس له أن يردها إلى عصمته إلا بعقد شرعي ومع رضاها ، ولا يصح عقد نكاحه أو تزوُّجُ أحد به .

يبطل حجه قبل ردته عند الحنفية والمالكية ويلزم إعادته ، أما الشافعية فيبطل ثوابه فقط .

وتحرم ذبيحته .

لا يرث من مرتد ولا من مسلم ولا من كافر أصلي ، ولا يورَث أي لا يرثه أحد ، ولا يصير محجورا عليه بمجرد الردة بل لابد من ضرب الحاكم عليه .

فإذا مات لا يصلى عليه ، ولا يغسل (أي لا يجب غسله لكن يجوز) ، ولا يجب تكفينه ولا يدفن في مقابر المسلمين .

عودته إلى الإسلام : يجب على من وقعت منه الردة :

العود فوراً (أي عقب الردة) إلى الإسلام بالنطق بالشهادتين.

٢- التوبة وهي:

١- الاقلاع عما وقعت به الردة في الحال .

٢- الندم و الحزن على ما صدر منه فيما مضى .

٣- والعزم على أن لا يعود لمثله .

٤- قضاء ما فاته من واجب الشرع كالصلاة والصوم والزكاة في مدة الردة ، خلافاً للسادة الحنفية فلا يلزمه قضاؤها ، أما عند السادة المالكية والحنابلة لا تقبل في الدنيا توبة من سب الله تعالى أو سب رسوله سبا صريحا أو تنقصه ، ولا توبة على الزنديق (وهو المنافق الذي يظهر الإسلام ويخفي الكفر بل يقتل في كل حال ، لأن هذه الاشياء تدل على فساد عقيدته وقلة مبالاته بالإسلام) .

ثم الذنوب عندنا قســـمان صغيرة كبيــرة فالثـــاني

منه المتابُ واجبٌ في الحال ولا انتقاضَ إن يعدْ في الحالِ

لكنْ يجددْ توبــةً لما اقترفْ وفي القبولِ رأيهم قد اختلف

فإن لم يتب بنفسه يجب استتابته ، ولا يقبل منه إلا الإسلام أو القتل بضرب عنقه ، والذي يقيم عليه ذلك هو الإمام ، ولاتقتل المرأة المرتدة عند الحنفية خلافا للثلاثة .

وإذا تكررت ردته ضربه الإمام عند الحنفية ويحبسه حتى تظهر توبته ثم يخلي سبيله ، وعند الإمامين مالك وأحمد لا تقبل توبة من تكررت ردته .

أسأل الله تعالى العصمة والحفظ من ذلك كله لي وللمسلمين .

ولا نكفّر أحداً من أهل القبلة وإن عمل بالكبائر إلا إن استحلها ولا نشهد لأحد من أهل القبلة بالجنة لخبر أتى به إلا من شهد له سيدنا رسول الله ﷺ .

الإمامة و الخلافة

لابد للأمة من إمام ظاهر غير مختفٍ ولا منتظر ، والخلافة بعد سيدنا النبي ﷺ ثلاثون سنة ثم كانت ملكا عضوضا وإمارة ، إلا من كان كالخلفاء الراشدين رضي الله عنهم كسيدنا عبد الله بن الزبير و عمر بن عبد العزيز والمتوكل ونور الدين الشهيد رضي الله عنهم والصبر تحت لواء السلطان على ما كان منهم من عدل أو جور ولا نخرج على أولي الأمر بالسيف وإن جاروا . قال صاحب الجوهرة:

وواجبٌ نَصْبُ إمامٍ عَـدْلِ بالشرعِ فاعلمْ لا بحكم العقلِ

فليسَ رُكناً يُعتقدْ في الدينِ فلا تزغْ عــن أمــره المبينِ

إلا بكفرٍ فانبـــذنَّ عـهدَه فالله يكفينـــا أذاه وحـدهُ

التقليد في التوحيد وفروع الفقه :

ويجب تقليد أحد الأئمة الأربعة لأنهم والإمام الجنيد رضي الله عنهم هداة الأمة. قال صاحب الجوهرة:

ومـــالكٌ وسـائرُ الأئمهْ كذا أبو القاسم هداةُ الأمهْ

فواجبٌ تقليدُ حَبْرٍ منهمُ كذا حكا القومُ بِلفْظٍ يُفْهِمُ

والتقليد هو: الجزم بقول الغير أو باعتقاده أو بفعله من غير أن يعرف دليله، وإيمان المقلِّد صحيح إن بحيث لو رجع المقلد لم يرجع المقلِد، ولكنه عاص بتركه النظر إن قدر .

ويجوز تقليد غير الأئمة الأربعة من غير إفتاء بشروطه المعتبرة التي صدّرتها في مقدمة كتابي ثلاثة أقمار:

وجائزٌ تقليدُ غيرِ الأربعهْ من غيرِ افتاءٍ وفي ذاك سعهْ

والخير في اتباع من سلف والشر في ابتداع من خلف [1] قال صاحب الجوهرة:

فكل خيرٍ في اتباعِ من سلفْ وكل شر في ابتداع من خلفْ

وكل هديٍ للنبي قدْ رجحْ فما أُبيحَ افعلْ ودعْ ما لم يُبَحْ

فتابعِ الصالحَ ممن سلفا وجانبِ البدعة ممن خلفا

ما يجب على ولي الصبي :

يجب على ولي الصبي أن يعلمه إذا بلغ سنِ التمييز ما مرَّ من العقائد وغيرها بأسلوب يناسب عمره كي يرسخ الإيمان في قلبه ، ويجب عليه أيضا أن ينهاه عن المحرّمات ، وأن يعلمه العبادات المناسبة لسنه ويأمره بفعلها بعد استكمال سبع ، ويضربه على تركها لعشر كي يعتادها ويأتي عليه البلوغ وهو بأكمل الحالات وأتمها .

كما يجب على والد الصبي أو وليه أن يلقن ولده عند سن البلوغ النية على أداء العبادات والطاعات واجتناب المحرمات والمنهيات. فهذا مما يطلب منه كما نقله الأئمة الثقات

خاتمـــة:

هذا آخر ما خطه القلم في هذا العلم جعلنا الله تعالى من متعلميه وأتباع هذا الدين الحنيف ، جمعته من مصادره الموثوقة ، وليس لي فيه أي فضل والفضل لأصحابه الذين دونوا لنا هذا العلم الشريف ، فمن وجد خطأً فمني وأتوب إلى الله منه ومن وجد غير ذلك فبتوفيق من الله ﷻ

إن تجد عيباً فسدَّ الخللا جلَّ من لا عيب فيه وعلا

وكان الانتهاء من كتابته في العشر الثاني من الشهر العاشر من السنة الثالثة عشرة من القرن الخامس عشر من هجرة صاحب المثاني سيدي وجدي ووسيلتي إلى ربي سيدنا ومولانا محمد صلوات ربي وسلاماته عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين وسائر أهل الله أجمعين ، وأسأله تعالى أن يكون خالصا لوجهه الكريم وأن يجعله في صحيفة

[1] انظر المذكرة في عقيدة أهل السنة والجماعة وهي رسالة مختصرة بنيتها على الجوهرة ألقيتها على طلابنا في معهد التهذيب والتعليم .

سيدي ومولاي ووالدي الشيخ محمد سهيل الخطيب الحسني وفي صحيفة السيدة الوالدة رحمهما الله تعالى ، وأسبغ عليهما رضوانه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

منظومة العقيدة الشرنوبية

يقولُ راجي الغَفْرِ للذنوب ... عبدُ المجيدِ الأزهري الشرنوبي

والحمدُ للهِ الولودانِ الذي ... والأنبيا ذاته والجن وبالبقا والأفلاتفردا

وبعدُ أختارُ اللهِ مفتاحَ الصلاة ... شهادةَ الإسلام صاحبها أثبت الصلاتِ

فكنْ له عقائداً واستعدِ ... لكي تحوز بها من مقامه فاحرص التقليدِ

وأحفظ لمبتدأ الخلق عشرين لازماً ... رُقيتكنْ بها لرُقي غرفِ الكمال خرفه

بجاه الوجودُ السيدِ البقاءُ البديءِ القدمْ ... والمخالفُ منالهل يناله التطهير العدمْ

وقائمٌ عليه بنفسيةٍ ربنا ... والأول ما سكلّ كتابٍ خُتمَ تسردُ

منها الوجودُ صفة نفسيه ... والخمسُ بعدَها هيَ السلبيه

وواجبٌ لربّنا المنّان ... سبعُ صفاتٍ سُمّيَتْ مَعَاني

علمٌ إرادةٌ وقدرةٌ بَصَرْ ... سَمْعٌ كلامٌ وحياةٌ تُعْتبرَ

وسبعةٌ قدْ لازمتها تُدْعَى ... بمعنويةٍ فألْق السَّمْعَا

ككونه حيًّا مُرِيْدَا قادِرا ... وفي ثبوتها خِلافٌ قد جرَى

والحقُّ لا استغناءَ بالمعاني ... عنها كما حُقّقَ بالبُرهانِ

وضِدُّهَا عليه يَستحِيل ... فإنه المنزّه الجليل

بكلّ أوصافِ الكمال قدْ وُصِفْ ... طُوبَى لِمَنْ له بهذا يَعترِفْ

وجائزٌ عليه فِعْلُ الممكنِ ... وتركُهُ إنْ لم يشأْ لم يَكُنِ

وواجبٌ لرُسْلِهِ الأمَانة ... والصدق والتبليغ الفطانة.

ومستحيلٌ ضِدُّها فلْتَعْلَمِ ... وجائزٌ كالأكلِ في حَقهم

واجزمْ بأنَّ المصطفى التّهامي ... أفضل مبعوثٍ إلى الأنامِ

قد خُصَّ بالإسراءِ والمعراجِ ... والملةِ الواضحةِ المنهاجِ

مِنْ ربه كقاب قوسين دنَا ... ونال منَ عطاه غايَة المنى

ويجبُ الإيمانُ بالذي وَرَدْ ... عنه من المولى المهيمن الصَّمَدْ

كالحشرِ والصراطِ والميزانِ ... والبعثِ والثوابِ في الجِنَان

صدر للمؤلف

صدرت مجموعة من كتب والده الشيخ محمد سهيل الخطيب الحسني رحمه الله تعالى وقمت بتحقيقها ما أمكن :

١) كتاب الإسراء والمعراج .
٢) كتاب مناسك الحج والعمرة .
٣) كتاب الدعوات .
٤) الوصية الواجبة .

أصدرت مجموعة من كتبه منها :

٥) ضم ثلاثة أقمار على متن غاية الاختصار في الفقه على المذاهب الأربعة .
٦) مناسك الحج والعمرة على المذهب الشافعي .
٧) سور من القرآن وأدعية مختارة من الكتاب والسنة ـ طبع عدة مرات ـ .
٨) ميزان الأخيار في التجارة والتجار « على المذهب الحنفي» .
٩) النفحة العلية في أناشيد الحضرة الشاذلية .
١٠) مع الله في الأذكار والأوراد ـ طبع مرتان ـ .
١١) زاد المسلم من أذكار الكتاب والسنة .
١٢) أحكام الصيامٍ على المذاهب الأربعة ـ طبع عدة مرات
١٣) أربعون حديثا في خصائص سيدنا النبي ﷺ .
١٤) شرح ابن قاسم الغزي .
١٥) نفحات منبرية في تاريخ المئة الأولى الهجرية، يتضمن السيرة النبوية بأكملها ثم تاريخ الخلفاء حتى سيدنا: عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .
١٦) غرر الشآم في تاريخ آل الخطيب الحسنية ومعاصريهم في مجلدين
١٧) الجوهرة في شرح الجوهرة (مذكرة في عقيدة أهل السنة والجماعة) .
١٨) مراقي العبودية في توحيد رب البرية .

١٩) ديوان الشيخ عبد القادر الحمصي .
٢٠) نفحات منبرية في سيرة أئمة المذاهب الفقهية .
٢١) الأدلة المؤتلفة في مبيت مزدلفة .
٢٢) الأدلة المجمعة في صلاة الظهر بعد الجمعة .
٢٣) كيف تكون خطيبا ناجحا .
٢٤) مختصر حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد .
٢٥) رسائل ابن الخطيب.
٢٦) ميزان الأخيار في التجارة والتجار على المذاهب الأربعة (رسالة دكتوراه) .
٢٧) رسم المفتي في المذهب الشافعي .
٢٨) نفحات منبرية في القضايا الإيمانية .

وأما ماهو تحت الإعداد والطبع :

٢٩) فقه العبادات على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه .
٣٠) حاشية على كفاية الأخيار للعلامة تقي الدين الحصني في الفقه الشافعي.
٣١) الفتاوى (على المذاهب الأربعة) .
٣٢) حاشية على مفيد العوام للجرداني في أدلة المذهب .
٣٣) مختصر حاشية الإمام الباجوري على شرح ابن قاسم
٣٤) رسالة في مصطلح الحديث النبوي الشريف .
٣٥) مختصر الإسرائيليات في التفسير والحديث الشريف .
٣٦) مختصر تربية الأولاد في الإسلام .
٣٧) الخطب الجمعية .
٣٨) براعة الاستهلال في الخطابة .
٣٩) آيات المجالس .
٤٠) مختصر خصائص اللغة العربية وطرق تدريسها .
٤١) أحكام تجويد القرآن الكريم .
٤٢) مختارات من الشعراء الإسلاميين .
٤٣) مبادئ الإملاء .
٤٤) أمهات المؤمنين .
٤٥) البدر فيمن حضر غزوة بدر .

٤٦) مختصر تاريخ المذاهب الإسلامية في العقائد .
٤٧) مجالس رمضانية .
٤٨) فهرسة كتاب مغني المحتاج للخطيب الشربيني .
٤٩) حاشية على عمدة السالك لابن النقيب .
٥٠) فهرسة كتاب اعانة الطالبين في الفقه الشافعي.
٥١) فهرسة كتاب روضة المحتاجين في الفقه الشافعي.
٥٢) فهرسة كتاب فتح العلام في الفقه الشافعي.
٥٣) تحقيق شرح ابن قاسم الغزي.
٥٤) فهرسة كتاب كفاية الأخيار في الفقه الشافعي.
٥٥) أمهات العقائد في قصص الأنبياء والرسل.
٥٦) معجم ألفاظ الطلاق.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة الكتاب	١
تقريظ الإمام العلامة الشيخ عبد الرحمن الشاغوري ...	٦
بين يدي الكتاب	١١
تراجم أئمة التوحيد	٢٠
الإمام أبو الحسن الأشعري	٢٠
الإمام أبو منصور الماتريدي	٢٥
الإمام أبو منير الشاغوري	٢٧
أركان العقيدة الإسلامية	٣١
الإيمان بالله تعالى	٣٢
ما يجب لله تعالى من الصفات	٣٥
الأولى : صفة الوجود	٣٥
الثانية : صفة القدم	٣٧
الثالثة : صفة البقاء	٣٨
الرابعة : صفة مخالفته للحوادث.....	٣٩
الخامسة : صفة قيامه بنفسه	٤٢

الموضوع	الصفحة
السادسة : الوحدانية	٤٤
صفات المعاني	٤٩
السابعة : صفة القدرة	٥١
الثامنة : صفة الإرادة	٥٣
التاسعة : صفة العلم	٥٧
العاشرة : صفة الحياة	٥٩
الحادية عشرة والثانية عشرة : صفتا السمع والبصر ...	٦٠
الثالثة عشرة : صفة الكلام	٦٠
صفة الإدراك	٦٤
تعلقات	٦٥
الصفات المعنوية	٦٦
الرابعة عشرة إلى العشرين	٦٦
المحال في حقه تعالى	٦٨
الجائز في حقه تعالى	٧١
التفويض أم التأويل	٧٥
٢ ـ الإيمان بالملائكة	٨٥
أعمال الملائكة	٨٧
عالم الجن	٨٩
٣ ـ الإيمان بالكتب السماوية	٩٤

الموضوع	الصفحة
صحف سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام	٩٩
توراة سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . .	١٠١
تحريف التوراة	١٠٣
زبور سيدنا داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . . .	١٠٦
إنجيل سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . .	١٠٨
القرآن الكريم	١١٢
مصدره	١١٣
ظاهرة الوحي ، صوره ، بدؤه	١١٣
نزول القرآن الكريم	١١٩
جمع القرآن الكريم وتدوينه	١٢٣
نسخ المصاحف ، مزاياها ، رسمها	١٢٩
علوم القرآن الكريم	١٣٣
إعجازه	١٣٤
مقاصد القرآن الكريم	١٤٢
٤ . الإيمان بالأنبياء والرسل	١٤٧
مايجب في حقهم وما يستحيل ومايجوز	١٤٧
الخوارق السبع	١٥٤
سيدنا رسول الله ﷺ	١٥٩
نسبه	١٦٠

الموضوع	الصفحة
زوجاته وجواريه	١٦١
أولاده	١٦٤
صحابته	١٦٦
٤ ـ الإيمان باليوم الآخر	١٧٠
أمارت الساعة الصغرى والوسطى والكبرى	١٧٠
القيامة وأحوالها	١٨٨
شفاعته ﷺ	١٩٠
الميزان ، الصراط ، الأعراف	١٩١
حوضه ﷺ	١٩٤
دخول الجنة ورؤية الحق ﷻ	١٩٥
رموز الأحاديث النبوية الشريفة	١٩٦
٥ ـ الإيمان بالقضاء والقدر	١٩٧
الرد على مفهوم الخاطئ.....	١٩٩
القدرية والجبرية	٢٠١
أهل السنة والجماعة هم أهل الحق	٢٠٣
أدلة الأشاعرة	٢٠٣
أحوال القضاء أربعة	٢١٠
أحكام متفرقة في العقيدة	٢١٤
الردة وأنواعها الثلاثة	٢١٥

الموضوع	الصفحة
حكم المرتد	٢١٩
عودته إلى الإسلام	٢٢١
الإمامة	٢٢٣
التقليد	٢٢٣
ما يجب على ولي الصبي	٢٢٤
الخاتمة	٢٢٥
منظومة العقائد الشرنوبية	٢٢٦
صدر للمؤلف عفا الله عنه	٢٢٨
الفهرست	٢٣٢